الفصل الرابع عشر

حول العوامل النفسية
لاتجاهات الشارع العربى والإسلامى
نحو تحرير الكويت(*)

* تمهيد فى مدخل.
* الهدف من الدراسة.
* منهج الدراسة.
* نتائج الدراسة :
  ـ أولاً : العوامل النفسية الاجتماعية وراء الاتجاهات المضادة للكويت ولدول الخليج.
  ـ ثانياً : توصيات لعلاج الاتجاهات المضادة للكويت ولدول الخليج.
* ملاحظة فى خاتمة.

(*) دراسة أعدها المؤلف؛ وكان الفراغ منها في أواخر أبريل من عام ١٩٩٢.

تمهيد في مدخل :

في صبيحة يوم الخميس الثاني من أغسطس عام ١٩٩٠؛ استيقظ العالم على حدث مروع – بكل المقاييس – ذلك هو الاحتلال العسكري المفاجئ من جانب العراق العربي المسلم لجاره وشقيقه الكويت العربي المسلم كذلك.

وهكذا؛ بدأت – ودون سابق إنذار، أو تبرير منطقي – سلسلة من المآسي الإنسانية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية تعصف بمنطقة الشرق الأوسط ومواطنيه – أفراداً وجماعات ومجتمعات – لم تكد تخف حدتها إلا مع نهايات شهر فبراير من عام ١٩٩١ عندما حررت الكويت من الاحتلال العراقي، وأعلن العراق قبوله لكل ما ارتآه مجلس الأمن من قرارات الشرعية الدولية، فأوقفت الحرب.

ومع ذلك فإن آثار هذه الأزمة وتلك الحرب لازالت حية حتى اليوم بما خلفته من جراح – سواء على مستوى الأفراد أم الشعوب أم الحكومات العربية – لم تندمل حتى يومنا هذا، وأغلب الظن أنها ستمتد حية مؤثرة تأثيراً سلبياً شديداً في اتجاهات شعوب المنطقة وحكوماتها ومواطنيها نحو بعضهم البعض لفترة طويلة قادمة. وذلك نتيجة لإنحياز كل حكومة بمعظم أفراد شعبها نحو أحد أطراف الصراع (الكويت أو العراق).

ولكن الشئ المثير للدهشة والاستغراب، والذي يحتاج إلى استجلاء عوامله ومسبباته، هو ما لوحظ من هبات جماهيرية في الشارع العربي والإسلامي قامت تعبر عن رأيها في ضرورة مناصرة العراق (المعتدي الظالم) ضد الكويت ودول مجلس التعاون الخليجي (المعتدي عليها دون وجه حق). وكان المتوقع عكس ذلك تماماً؛ أي أن تهب هذه الجماهير منذ بداية الاحتلال العراقي للكويت معبرة بشدة عن رفضها لما قام به العراق من اجتياح عسكري للكويت ومن تعريض المنطقة لخطر التدخل الخارجي، مطالبة إياه بالإنسحاب الفوري غير المشروط، ومؤيدة في

نفس الوقت المقاومة الكويتية والعالمية ضد هذا الإحتلال.

على أن الأمر الأكثر إثارة للدهشة والاستغراب ما لوحظ خاصة من أن أشد الدول تأييداً للموقف العراقي وأكثرها وأقواها في هبات جماهيرها مناصرة للعراق ضد الكويت ودول الخليج في هذه الأزمة إنما كانت تلك الدول والمجتمعات العربية والإسلامية صاحبة الأعداد الكبيرة التي تعمل وتتكسب وتعيش في الكويت أو غيرها من دول الخليج كالمملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية المتحدة؛ والتي أيضاً تتلقى معونات اقتصادية مهمة وشبه منتظمة من دول الخليج على النحو الذي كان عليه الفلسطينيون واليمنيون والسودانيون والأردنيون. بما يعني أن حماسهم وتأييدهم لموقف العراق البين في ظلمه وغير المبرر في منطقه؛ قد تخطى في قوته مصالحهم الذاتية الحيوية وظهر عليها. بل إن حماسهم هذا وتأييدهم قد أعماهم حتى كانت هتافات الشارع عندهم تعلو ضد الدول العربية التى وقفت ضد الظلم وأعلنت موقفها الرسمى الصريح بشجب العدوان العسكرى العراقى على الكويت ومطالبته بالإنسحاب، كما كانت جماهيرهم هذه الهائجة ترشق سفارات هذه الدول العربية التى وقفت في صف الحق بالحجارة، وكانت تعتدي بأساليب مختلفة مادية أو معنوية على مواطنى هذه الدول.

لقد كان لموقف هذه الجماهير أسوأ الأثر الذى بدا جلياً في جانبين خطيرين :

أولهما : أنه ساعد في شد أزر موقف العراق، وزاد في تصلبه وعناده ورفضه لكل مساعي السلام التى بذلها الزعماء العرب والمسلمون والدوليون، مما أجبر العالم على الدخول في حرب ضروس مع العراق أتت على أخضره ويابسه، لكي يجبره بدوره على الخروج من الكويت يجر معه أذيال الخيبة ويحصد الدمار لشعبه وجيشه ووطنه.

وثانيهما : أنه ساعد على رسم صورة ذهنية عن العربي المسلم تتلخص في تعطشه للدماء، وعدم فهمه إلا للغة القوة، وميله إلى الخيانة والغدر حتى بأقرب

الناس إليه بدليل تأييد كثير في الشارع العربي المسلم لموقف العراق من الكويت ودول الخليج الذي جسم كل ذلك. ومما لاشك فيه أن هذه الصورة الذهنية تساوي بين الهمجي المتوحش البعيد عن التحضر وبين العربي والمسلم. مما تستغله الدعايات الصهيونية ضدنا فتكسب تعاطف المجتمع العالمي معها وضد قضايانا الحيوية. وهذه الصورة تحتاج لسنين طويلة لمحوها أوتعديلها.

ولسنا ندري هل أدرك المؤيدون لموقف العراق هذين الأثرين المأساويين لموقفهم، أم لم يدركوه بعد.

ويشير هذا الموقف إلى أن الدوافع النفسية لهذه الجماهير العربية والإسلامية التى أيدت العراق وناصرته (مع ظلمه) ضد الكويت ودول مجلس التعاون الخليجي كانت من القوة حتى أعمت هذه الجماهير حتى عن مصالحها الذاتية، وعن التقدير السليم لقوانين العصر وظروفه، ولمحركات التاريخ ومحددات مساره ومنعطفاته؛ بل وغيبت عقلها عن الإدراك السليم للغة العصر السياسية ومتطلباته الدبلوماسية.

ونظراً لكل هذاك فإن هذه الأزمة وآثارها، وعواملها ومسبباتها، وما فجرته من صراعات، وما بلورته من اتجاهات وقناعات سوف يظل كله لسنوات عدة قادمة هدفاً لدراسات وبحوث وكتابات، لاستجلائها وتسجيلها وطرحها، واستخلاص العبر منها.

الهدف من الدراسة :

سبق أن أشرنا في التمهيد إلى أهمية العوامل النفسية في تكوين الاتجاهات المضادة للكويت ودول الخليج في أزمتها مع العراق، والتى حركت بعض جماهير الشارع في بعض الدول العربية والإسلامية، وذلك على عكس ما كان متوقعاً تماماً مما يثير استغراباً شديداً، بحيث يدفعنا هذا الموقف لبحث الأمر واستجلائه. ومن هنا فقد تركز هدفنا في هذه الدراسة فى تحقيق غرضين أساسيين هما :

١ – إلقاء الضوء وتسليطه لكشف العوامل النفسية والاجتماعية التى تكمن وراء تكوين واستثارة الإتجاهات المضادة للكويت ودول التعاون الخليجي في أزمتها مع العراق، مع توضيح وتفسير الأسس السيكولوجية الاجتماعية وراء تفجر هذا العداء نحو دول الخليج في الشارع العربي والإسلامي وإظهار التأييد والمناصرة للرئيس صدام حسين ونظامه العراقي على الرغم من وضوح الحق إلى جانب دول الخليج.

٢ – اقتراح بعض التوصيات من واقع الدروس المستفادة من هذه الأزمة، وعلى أسس ومبادئ علم النفس لتحسين الصورة الذهنية عن دول الخليج لدى الشارع العربي الإسلامي لكسب تأييده إذا ما تكررت أزمة مماثلة في المستقبل، وهو أمر محتمل لاشك، وإن كنا ندعو الله ألا يحدث؛ وكفى ما عاناه العرب والمسلمون من هذه الأزمة، وما لاقوه فيها من خسائر بشرية ومادية ومعنوية جسيمة بكل المعايير.

منهج الدراسة :

اعتمدت هذه الدراسة لتحقيق هدفها على دعامتين منهجيتين أساسيتين:

تمثلت أولاهما : في تحليل المضمون Content Analysis وهو منهج علمى معروف في كثير من بحوث ودراسات العلوم الإنسانية كعلم النفس والاجتماع والإعلام.. فلقد لجأنا هنا إلى تحليل المضامين البارزة والهامة ذات الإيحاءات القوية والدلالات الشديدة، الظاهرة أو الكامنة، وذلك في كثير من الكتابات والدراسات والنشرات والتحليلات والتعليقات والخطب والنداءات والأحاديث.. والتى ألفت ونشرت في الكتب أو الصحف أو المنشورات أو وكالات الأنباء، أو تلك التى ظهرت على هيئة قرارات لمؤتمرات أو منظمات، أو هذه التى أعلنت في خطابات أو نداءات أو أحاديث ولقاءات والتى تعلقت بأزمة الخليج.. وقد أتيح لنا الإطلاع على

كثير منها. ونحن فى تحليلنا للمضمون بهذه الطريقة إنما نستخدم طريقة علماء النفس خاصة في تحليل مضمون البيانات التى تتجمع لديهم عندما يستخدمون المقابلة السيكولوجية Psychological Interview أو عندما يطبقون اختباراتهم الإسقاطية Projective Techniques مثل اختبار تفهم الموضوع Thematic Apperception Test والمعروف اختصاراً باختبار الـ "TAT" .

أما الثانية : فقد تمثلت في خلاصة ما ترسب في أذهاننا مما دار معنا أو اشتركنا فيه أو حدث في حضورنا، من مناقشات وجدال أو تبادل للآراء ووجهات النظر، مع تيارات مختلفة في توجهاتها وقناعاتها، أو مع طوائف متباينة في جنسياتها ومواطنها ومستوياتها، وسواء أكان هؤلاء من أقرباء أو أصدقاء، أم كانوا من معارف أو زملاء .. وسواء أيضاً أكان ذلك أثناء أزمة الخليج أم بعدها. إذ لاشك أن خطورة الأزمة وجسامتها قد طغت بثقلها على الأحاديث والمناقشات في الجلسات الخاصة بين عامة الناس فما بالنا بمثقفيهم وصفوتهم. ولقد لجأنا بهذا الخصوص إلى منهج التأمل الذهني الصرف وتقليب النظر العقلي فى الأمور والملابسات لاستخلاص ما يمكن استخلاصه من عوامل ومسببات للاتجاهات المضادة في الشارع العربي والإسلامي لدول الخليج. ولقد تمثلنا في موقفنا المنهجي هذا بموقف المحلل النفسي Psychoanalyst في تحليله للمادة التى تتجمع لديه عن الفرد الذى يقوم بتحليله، سواء أكانت من تداعياته الطليقة أم من غيرها من جوانب سلوكه، فيربط بينها في نسق متكامل يشف عن البناء النفسي الأساسي لمن يقوم بتحليله حتى لو كان يجاهد في إخفائه وتمويهه كما فعل أصحاب الاتجاهات المضادة في أزمة الخليج.

هذا؛ مع ملاحظة أن موضوع الدراسة وطبيعة المادة التى أخضعت للتحليل قد فرضاً علينا أن نمزج بين المنهجين أحياناً لاستخلاص نتائج معينة وأن نستعين بواحد منهما أو بالآخر لاستخلاص نتائج أخرى. ولسنا في حاجة إلى التنبيه إلى

ذلك حتى لا يضطرب السياق، حيث أن القارئ لهذه الدراسة يستشف ذلك تلقائياً ودون عناء.

نتائج الدراسة

أولاً : العوامل النفسية الاجتماعية وراء الاتجاهات المضادة للكويت ولدول مجلس التعاون الخليجي والتي ظهرت في الشارع العربي والإسلامي

لعل من أهم العوامل النفسية الاجتماعية التي نخرج بها من دراستنا والتي أسهمت في تكوين اتجاه مضاد للكويت ولدول مجلس التعاون الخليجي والتي تفجرت في الشارع العربي والإسلامي مؤيدة للرئيس صدام حسين ونظامه العراقي في موقفه من أزمة الخليج ما يلي :

١) استثارة العاطفة الدينية :

من المعروف عن الشرق عموماً والشرق العربي خصوصاً تقديسه الشديد للدين ولكل ما يمس معتقداته أو نصوصه وأصوله. ولا غرابة في ذلك، فإن الشرق العربي مهبط الأديان السماوية ومبتداها. ومنه انطلقت دعواتها حتى بلغت أقصى الآفاق، يصدق هذا على الإسلام بمثل ما يصدق على النصرانية واليهودية.

ولهذا من المعروف جيداً أن المدخل الديني (أو التسويغ الديني) هو أفضل المداخل إذا أردنا إقناع العربي بفكرة ما. فإذا نجحنا بربطها بالدين، وببيان أن الدين يؤيدها أو يوجبها، فقد ضمنا لها الانتشار والتأييد، خاصة في الشارع العربي وبين الجماهير الإسلامية عامة. بل وضمنا أيضاً الدفاع عن هذه الفكرة بكل غال ثمين حتى بالأرواح والأنفس، حيث تكون هناك قناعة بأن الموت دونها إنما هو استشهاد مطلوب، طوبى لمن ناله، واختاره الله له.

لقد تلقف الإعلام العراقي هذه الحقيقة فجعلها محور خطابه إلي الجماهير العربية والإسلامية. فكان الرئيس صدام حسين ونظامه وإعلامه ينتهزون كل فرصة لإظهار أن ما يقومون به إنما هو دفاع عن شرع الله المنتهك في دول الخليج، ومحاولة لتطبيق التوجهات والحلول وقواعد السلوك والتصرف الإسلامي السديد في الحكم والاقتصاد ومناحي الحياة المختلفة، تقوية لشوكة الإسلام والمسلمين، حتى يتبوءوا في هذا العالم مكانتهم اللائقة بهم، والتى كانت لهم أيام ازدهار حضارتهم، وقوة سلطانهم..

ولنأخذ نموذجاً على ذلك بعض فقرات مما ورد في حديث الرئيس صدام حسين مع وفد الأمانة العامة للاتحاد الدولي لنقابات العمال المشاركة فى المؤتمر العام التاسع للاتحاد العام لنقابات العمال في العراق إبان أزمة الخليج :

ـــ «وعندما ضربت هذا المثل.. فإنما لأقول إن البترول تحول حتى في الاعتبارات الفنية إلى نقمة بدلاً من أن يكون نعمة.. فحولوا عدداً من الناس الأكثر تخلفاً في المجتمع وجاءوا بهم ليكونوا حكاماً مسيطرين على بترول العرب ويحولوا حالة الفساد والسلوك الفاسد والتصرف الفاسد المريض إلى نماذج إغراء في جانبها المادي أمام العرب. وفي جانبها الآخر ليحولوها سبة على العرب بسبب هذا النموذج السيء الذى يظهرونه في المجتمعات الغربية كدليل على أن العرب ضعفاء عقلياً وليس سلوكياً فقط من خلال النماذج الشوهاء التى يقدمونها إلى المجتمع الغربي. فحولوا ثروة العرب التى يفترض أن تكون في خدمتهم إلى ما يسيء إلى سمعتهم الاجتماعية والفكرية والسياسية، وفي كل الميادين».

ـــ «ليس أمامنا خيار نختاره؛ فإما العزة والشرف والكرامة والسيادة الوطنية والقومية والإسلام، وإما النقيض لكل هذا. ليس أمامنا إلا أن نختار هذا الطريق.. ولابد أن نختار هذا الطريق، لابد أن نختار طريق العزة والكرامة والسيادة الوطنية

والقومية والشرف ومبادئ الإسلام الصحيح الذى وضع خلال مئات السنين في إطار الروتين والبيروقراطية.. وتعرفون أن أي دولة توضع مجريات حركتها في إطار الروتين والبيروقراطية، فإن الحياة أو الجانب الاعتيادي الأساسي يتوقف فيها. لقد حول الإسلام الذى هو روح الله وقدرات العرب في الأرض إلى حالة روتينية وإلى حالة بيروقراطية يمارس من قبل قلة بالنصيحة الفنية للكثرة. والقلة عندما تمارس عملية النصيحة الفنية للكثرة فإنها تمارسها من غير عناء كبير، وبصيغة نظرية لا تترافق معها دائماً الصيغة الجهادية. والكثرة عندما تتلقى النصيحة الفنية تتلقاها كذلك بطريقة روتينية يومية لأداء نوع من الشعائر المجردة عن روحها الأساسية وعن الأسباب التى نزلت من أجلها الرسالة الإسلامية».

ـــ «لقد أصبح العرب أمام حتمية إعادة دورهم التاريخي الذى أراده الله لهم والذى يستحقونه كأمة عريقة لها دورها في الحياة الإنسانية وفي مسارها القومي. وعندما يبلغ الضغط أقصاه، وعندماتبلغ المهانة أعلى مراحلها لابد من (عمل) يضع الأمور في نصابها الصحيح.. فمن أصل ثلاثة أماكن مقدسة يجمع عليها المسلمون والعرب صارت الثلاثة محتلة.. القدس المحتلة، ومكة محتلة، وقبر الرسول محمد ﷺ محتل.. فهل هناك من يحرك طاقات العرب والمسلمين بعد هذا أعلى من هذه المهانة، ومن هذا الجور، ومن هذا الظلم والتعدي».

ـــ «وعلى الجميع أن يتذكروا أن الله هو الأكبر والأعلى...» .

ولقد ظل الخطاب الإعلامي العراقي يلعب على هذا الوتر الحساس لدى كل مسلم، حتى نجح في شق الصف الإسلامي سواء أكان عربياً أم غير عربي، حتى وجدنا كثيراً من ذوي النزعات الإسلامية المتعصبة ينحاز إلى وجهة نظر العراق في الأزمة ويندفع طالباً التطوع للدفاع العسكري عنه، على الرغم من أن المنطلقات الإسلامية الصحيحة والصريحة تدين العدوان العراقي على الكويت، بل وتحض على

مقاتلة العراق حتى يرجع عن غيه ويعود إلى جادة الصواب، ما لم يرجع عن غيه بالنصيحة والحسنى أولا. وهذا ما حاوله كثير من رؤساء وملوك العرب والمسلمين وبقية دول العالم ومؤسساته المهتمة بالسلام (قبل بدء حرب التحالف له) وفشلوا فيه. وفي هذا تقول الآية القرآنية الكريمة بغاية الوضوح والصراحة : ﴿**وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين**﴾ – سورة الحجرات : آية (٩). كما أن نصوص القرآن والسنة قد قضت بأن «كل المسلم على المسلم حرام؛ دمه وماله وعرضه»، كما تؤكد على أن من قتل نفساً بغير حق فكأنما قتل الناس جميعاً. ومما تناقلته الصحف، ونشرته وسائل الإعلام، وتحدث به ووصفه مشاهدو العيان مما حدث دون وجه حق من العسكريين العراقين من قتل واغتصاب ونهب لممتلكات الكويتيين والمقيمين بالكويت من عرب ومسلمين الشئ الكثير والكثير. الأمر الذى كان أجدى أن يدعو العرب والمسلمين في أنحاء العالم من منطلق إسلامي صرف أن يدينوا العراق لا أن يناصروه كما حدث من بعض الجماهير العربية والإسلامية إبان الأزمة في تظاهراتهم وهباتهم المؤيدة لموقف الرئيس صدام حسين ونظامه العراقي. حتى أن بعض المؤتمرات الإسلامية قد عقدت تحت شعارات الإسلام وعباءته حضرها بعض فقهاء الإسلام ودعاته لمناصرة الموقف العراقي؛ كذلك الذى عقد بليبيا تحت إسم (المؤتمر العام للقيادة الشعبية الإسلامية العالمية) في ٣٠ أكتوبر من عام ١٩٩٠، وقال عنه الأستاذ عصام دراز في كتابه (لماذا اختلفنا ؟ الإسلاميون وحرب الخليج، المنار الجديد، القاهرة، ١٩٩١، ص٩٢) «وكان هذا المؤتمر نموذجاً للكارثة التى حلت بالأمة الإسلامية فهو يكرس للفرقة ولا يدعو للوحدة، يؤدي إلى الإنشقاق بالمزايدة في قضايا المصير فى وقت في غاية الخطورة.. وقت لا نحتاج فيه لشئ سوى للوحدة..»، ومثل هذا مؤتمرات أخرى عقدت في العراق والأردن وغيرهما

مناصرة للعراق ومضادة للمؤتمر العالمي الذى دعت إليه رابطة العالم الإسلامي والذى انعقد بمكة المكرمة بين العاشر والثاني عشر من سبتمبر ١٩٩٠ والذى أدان الغزو العراقي للكويت وطالب بسحب قواته فوراً دون قيد أو شرط، وأجاز الاستعانة بغير المسلمين لطرد المعتدي العراقي من الكويت.

ولقد ركز الخطاب الإعلامي العراقي على أن الإسلام لا يجيز أن يستعين المسلم بغير المسلم على قتال أخيه المسلم، قاصداً بذلك أن الكويت والسعودية ودول التعاون الخليجي قد خرجت على الإسلام عندما طلبت العون من القوات الأجنبية للإستعانة بها في طرد العراق من الكويت، وكف أذاه عن دول الخليج. وفي هذه الدعاية مغالطة كبرى ومناقضة صريحة لأصول الإسلام وتوجهاته البناءة. ولازالت الكثير من العناصر الإسلامية حتى اليوم تؤيد تلك المغالطة العراقية وتعتقد في صحتها، على الرغم من أن كثيراً من فقهاء الإسلام ودعاته المشهورين المعدودين- حتى من هم من غير منطقة الخليج - قد أفتوا وأفاضوا في جواز الإستعانة بغير المسلمين لحرب الباغين من المسلمين. فعلى سبيل المثال أفتى بذلك الشيخ متولي الشعراوي والشيخ جاد الحق علي جاد الحق والشيخ محمد الغزالي والدكتور محمد سيد طنطاوي، كما ناصرهم في رأيهم كثير من الفكرين ذوي المكانة الممتازة مثل الدكتور حامد العابد رئيس رابطة العالم الإسلامي والأستاذ خالد محمد خالد والأستاذ أحمد بهجت وغيرهم كثير. هذا علاوة على أن المؤتمر الإسلامي العالمي الذى عقد بمكة المكرمة، وسبق أن أشرنا إليه، قد كان القرار الخامس فيه : «فيما يتعلق بالإستعانة بالقوات الأجنبية فإن المؤتمر بعد الإطلاع على بحوث العلماء يقرر أن ما حدث من استعانة المملكة العربية السعودية بقوات أجنبية لمساندة قواتها في الدفاع عن النفس إنما اقتضته الضرورة الشرعية، والشريعة الإسلامية تجيز ذلك بشروط الضرورة المقررة شرعاً».

فإذا أضفنا إلى كل هذا ما هو معروف عن أن تاريخ الحكم البعثي في العراق لا يوحي بأنه يحكم بشريعة الإسلام أو يتخذه منهاجاً له، وأن طرحه الأخير للإسلام جاء من منطلق تملق الشارع العربي والإسلامي في انتهازية واضحة لإثارته ضد دول الخليج في أزمتها واستنفاراً لتأييده؛ لأدركنا أنه قد حدث تحريف شديد في إدراك العقل العربي والإسلامي للحق والعدالة ومبادئ الشرعية الدينية والدولية، بحيث أصبح العقل العربي والإسلامي يدرك ما يريد إدراكه فقط، وليس الحقيقة كما هو مفترض. ويشير علم النفس بوضوح في نتائجه عن الدراسات التجريبية لموضوع الإدراك إلى أن الإدراك يتلون كثيراً بالميول والمصالح والمعتقدات الخاصة بكل منا، فإذا بنا نختلف حول الموضوع الواحد والحقيقة الواحدة، فلا ندرك إلاما نريد إدراكه كما يقول علماء النفس. لكن المصيبة في العالم العربي والإسلامي أن يصل الاختلاف في الإدراك إلى هذا الحد من التناقض الصارخ حول الموضوع الواحد (أزمة الخليج) وأن يكون التناقض مبنياً على أساس واحد (الأصل والشريعة الإسلامية). فيصدق بهذا علينا حرفياً المثل العامي القائل بسخرية شديدة «بصلة المحب خروف»، بما يرمز إلى العمى الشديد الذى يصيب المحب في إدراكه وتزييفه للحقيقة، حتى ليدرك فيها ما يتفق فقط مع هواه ومعتقده. وهكذا أدرك كثيرمن الإسلاميين أن حرب الخليج لم تكن إلا حرباً بين الإسلام (ممثلا في العراق) وبين الكفر (ممثلا في قوى التحالف)، وكأنها حرب صليبية أخرى لكنها بمباركة الحكام العرب هذه المرة.

٢) استثارة العاطفة القومية (العربية) :

إذا كانت العاطفة الدينية – والتى ناقشناها في البند السابق – شديدة التأثير في تكوين اتجاهات الجماهير العربية والإسلامية وتهييجها واستثارتها، مما تنبه إليه الخطاب الإعلامي العراقي واستغله، فإن العاطفة القومية (العربية) مما يلي تلك

مباشرة في أهميتها وقوة تأثيرها. ولازلنا نتذكر كيف كان الشارع العربي من الخليج إلى المحيط يتجمع لسماع خطب الزعيم الراحل جمال عبدالناصر ويلتهب حماساً لحديثه عن القومية العربية والوحدة العربية كأمل ينبغي السعي إلى تحقيقه مهما كلفنا ذلك من تضحيات.

ولاشك أن الوحدة العربية حلم يراود معظم مواطني الدول العربية، حيث تحقق لهم ما تحققه الوحدة عادة من قوة وحجم تأثير ونفوذ وتفوق. وليس هناك من مواطن عربي مخلص إلا ويحب القوة للعرب في كافة جوانبها وأشكالها، نستعيد بها ما كان للعرب من تأثيرحضاري ونفوذ قوي ومكانة كبيرة بين دول العالم أيام صدر الإسلام وخلفائه الراشدين ودولتيه الأموية والعباسية، وحتى تكون الدولة العربية بعد ذلك نواة للدولة الإسلامية الأكبر.

ولقد استغل الخطاب الإعلامي العراقي هذه العاطفة القومية العربية أكبر استغلال ممكن للتأثير على الجماهير العربية وكسب تأييدها، فكما خاطب الإسلاميين في الشارع الإسلامي – على نحو ما بينا في البندالسابق – نجده أيضاً خاطب القوميين العرب بما يتملق عواطفهم ويستثير مشاعرهم. ولنأخذ نموذجاً لذلك بعض فقرات من خطاب حديث الرئيس العراقي صدام حسين (والذى سبق أن أشرنا إليه) :

ـــ «إذن في ثروة العرب الذى نريده هو أن يكون كل العرب أقوياء؛ مالكو البترول والذين لا يملكونه أيضاً. ولا يمكن أن يكونوا أقوياء إلا عندما نتصرف تجاه ثروة العرب في أي مكان على أساس الواقع التاريخي بأننا أمة واحدة بغض النظر عن التقسيمات الإدارية ووجود دول عربية منتشرة على الوطن الواحد وفي الأمة الواحدة. وإذا ما تمت هذه النظرة بتصرف عملي فإننا سنصبح مع الزمن وكأننا حالة واحدة فى التفكير وفي التصرف وسنكون عند ذلك أقرب إلى الله سواء

الأغنياء منا أو الفقراء. ولكن الحرمان المستزيد مع الدور الخبيث في سحق المحرومين قد يجعل بعضهم بعيداً عن الله بسبب الحاجة. ومن المؤكد أن الأغنياء الذين يملكون من غير تعب ومن غير عمل يكونوا هم الأبعد عن الله دائماً. وعلى أساس هذا التفسير استهدف نظام عبدالناصر في مصر». (لاحظ هنا المحاولة الذكية للمزج بين استثارة العاطفة الدينية والعاطفة القومية والإستفادة من الرصيد الكبير من تقدير المواطن العربي وحبه لعبدالناصر)».

ـــ «وعندما اكتشف الأجانب البترول في أرض العرب؛ فبدلا من أن يجعل البترول عنصراً مادياً يغذي الاعتبارات الروحية والمعنوية ويقويها ويخلق قاعدة مادية لا تغطس في الرذيلة وإنما ترفع باتجاه الفضيلة، عمد الأجنبي إلى تحويل هذه النعمة التى أرادها الله للعرب إلى نقمة على مالكيها وعلى كل العرب. ونحن نرى – ولا أظننا نختلف – لأننا أبناء أمة واحدة وفى توجه عام مشترك بأن الذى يملك أكثر مما يجب يضعف، وأن الذى لا يملك أي شئ مما يجعله فى حالة اعتبارية معقولة يضعف.. فأرادوا إضعاف أبناء الأمة من الذين يملكون والذين لا يملكون.. فوضعواالبترول في أيدي القلة فأفسدوها، وحرموا الكثرة من مصدر القوة ليضعفوها. ولو جلنا النظر في هذا المبدأ من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق لوجدنا مفردات يومية في حياتنا تشير إليه. فالمواطن البسيط في مراكش يتحمل وزراً إضافياً في رزقه اليومي وفي قوته الشرائية جراء بترول السعودية أو جراء بترول دولة الإمارات لأن السلعة التى كانت تصدر إلى المنطقة بقيمة «س» أصبحت بعد البترول تصدر بـ «س» زائداً مبلغ من المال على أساس الاعتبار الظاهر للعيان بأن المنطقة غنية بسبب وجود البترول فيها... ».

ـــ «لقد أصبح العرب أمام حتمية إعادة دورهم التاريخي الذى أراده الله لهم والذى يستحقونه كأمة عريقة لها دورها في الحياة الإنسانية وفي مسارها القومي..».

ـــ «إن هذه هي عادتنا، وهذا هو منهجنا، وهذا هو إيماننا. والذى يحاول أن يتآمر على الأمة علينا أن نضرب رأسه بدلا من أن ننحني له ونتساوم معه على مقدسات الأمة. وهذا هو الذى حصل. والكويت جزء من أرض العراق. وتعرفون كعرب أن عمر حضارته ستة آلاف سنة. فهل من المعقول أن حضارة عمرها ستة آلاف سنة كانت معزولة عن البحر.. إنها جزء من أرض العراق اقتطع بالمقص الإنجليزي. ورغم ذلك كنا نتعامل معهم تعاملا طبيعياً آملين أن يعوضنا الله في أخوة كنا ننتظرها منهم، ولكن ظهر أننا كنا على خطأ.. فأراد الله سبحانه وتعالى الذى أراده وخلص الأمة من هذه البؤرة المتآمرة القذرة وأعاد الجزء الذى أضعف ليكون جزءاً من الحالة القوية فيتقوى بها. ثم جاءت أساطيل الغزاة وكانت ستأتي حتماً ولكن كان من الممكن أن تأتي داخل الكويت لتقول إن العراق يهدد الكويت. ولكن لأن الكويت عادت إلى أهلها هذه المرة، فقد راحوا إلى أرض مقدسات العرب والمسلمين حيث احتلوا شبه الجزيرة العربية؛ احتلوا السعودية. ليس أمامنا خيار نختاره؛ فإما العزة والشرف والكرامة والسيادة الوطنية والقومية والإسلام، وإما النقيض لكل هذا. ليس أمامنا إلا أن نختار هذا الطريق.. ولابد أن نختار هذا الطريق، لابد أن نختار طريق العزة والكرامة والسيادة الوطنية والقومية والشرف ومبادئ الإسلام الصحيح..».

إن النصوص السابقة التى اقتطفناها من حديث الرئيس صدام حسين تمثل المحاور الأساسية التى قام عليها الخطاب الإعلامي العراقي في استثارة العاطفة القومية لدى الجماهير العربية وفي استمالتها إلى موقفه من احتلال الكويت وضمها بالقوة العسكرية تحقيقا لنواة وحدة عربية توسع لضم دول الخليج طواعية أو كرهاً لتتطور بعد ذلك بنفس الأسلوب لضم بقية الدول العربية. ولقد نسى الرئيس صدام حسين أن الزعيم جمال عبدالناصر – والذى كان يشير إلى الاقتداء به – كان يطلب الوحدة عن طريق الاقتناع والرضا، وليس عن طريق الحرب

والسيف والاغتصاب، وله فى تجربة الوحدة المصرية السورية أوضح دليل على قناعة عبدالناصر حتى أن السوريين عندما رغبوافي إنهاء الوحدة لم يلجأ عبدالناصر إلى القوة للإبقاء عليها واستمرارها. ولاشك أن الرئيس صدام حسين يتذكر جيداً كيف كان حماس الشعب السوري وقيادته لإتمام الوحدة مع مصر. وكم نتمنى أن يأتي اليوم الذى تطلب فيه شعوب الدول العربية وأنظمتها بقناعة وبشكل اختياري حر وحدة عربية طواعية راسخة الجذور، مبنية على مشاعر الحب المتبادل، والمصالح المشتركة، والأخوة التاريخية على نحو ما يقوم الآن بين اليمن الشمالي والجنوبي، وألمانيا الغربية والشرقية، ودول السوق الأوروبية المشتركة، فتلك لغة العصر الحديث، المحبذة سياسياً، والمقبولة دبلوماسياً.

٣) استثارة عاطفة تحرير القدس والأراضي الفلسطينية المحتلة :

تمثل القدس إحدى المدن المقدسة الثلاث بالنسبة للجماهير الإسلامية والعربية إلى جانب مكة المكرمة والمدينة المنورة، ففيها المسجد الأقصى مسرى رسول الإسلام ﷺ. هذا إضافة إلى أنها عاصمة الأراضي الفلسطينية التى فيها ولد المسيح عليه السلام ومنها انطلقت دعوته فزادها هذا تقديساً فى نظر المسلمين الذين يعترفون بالأديان السماوية المقدسة ويرعون حرماتها كما يحض على ذلك دينهم. كما أنها كذلك أرض مقدسة بالنسبة لكافة النصارى علاوة على اليهود. وفي هزيمة عام ١٩٦٧ الشهيرة والتى لحقت بالعرب استكمل الإسرائيليون احتلال الأراضي الفلسطينية، بل واحتلوا أجزاء أخرى شاسعة من دول عربية مجاورة، جرى عليها التفاوض السلمي سابقاً، ويتابع الآن لتحريرها وتسليمها لأصحابها، بعد أن عجز العرب – حتى الآن – عن تحريرها بالقوة وحدها.

وفي هذا الظرف النفسي الباعث على الإحباط لدى الجماهيرالعربية والإسلامية بعث الرئيس العراقي صدام حسين الأمل لديها في اقتراب تحرير القدس

والأراضي الفلسطينية المحتلة بالقوة العسكرية الرهيبة التى زعم امتلاكه لها من طيران وصواريخ وقنابل ومواد كيماوية حارقة وسامة، وخرج بتهديده الشهير قبل شهور قليلة من احتلاله للكويت (في شهر أبريل من عام ١٩٩٠) بتدمير نصف إسرائيل بأسلحته الفتاكة إن هي فكرت في قصف منشآته أو التطاول على أي بلد عربي. كما زعم بعد ذلك أن الاستيلاء على الكويت وضمه هو طريقه إلى تحرير القدس في محاولته لتبرير ذلك. وبعد أن أسقط في يده ووقع فى فخ أزمة الخليج أكد نفس الفكرة في مبادرته التى طرحها بخروجه من الكويت فى مقابل خروج إسرائيل من القدس والأراضي العربية المحتلة وإقامة الدولة الفلسطينية.

لقد لعب على الوتر الحساس في البنية السيكولوجية للشخصية العربية والإسلامية، فمن من العرب أو المسلمين لا يؤيد تحرير القدس وإقامة الدولة الفلسطينية ؟؟!! خاصة وأن لهجة الخطاب الإعلامي العراقي في هذا الخصوص كانت تتسم بالقوة والثقة الزائدة في النفس والاعتداد الكامل بالذات، وهي أمور حرمتها العرب من مدة طويلة مع نكسة ١٩٦٧ مباشرة. لذا لم يكن غريباً أن يستميل العراق إلى جانبه شرائح كثيرة من الجماهير العربية والإسلامية تنخدع بخطابه الإعلامي وتبارك تصرفاته ضد دول الخليج وترى فيه صلاح الدين الجديد الذى بعثته العناية الإلهية لتحرير القدس وفلسطين وتوحيد العرب. وقد عاشت هذه الشرائح وقت أزمة الخليج ناعمة بحلم أو وهم تحقيق الرغبة Wish-Fulfilment الذى يقول به علماء النفس، حيث يعيش الفرد في وهم مؤداه أن رغبته قد تحققت أو هي على وشك التحقق بما يصاحب ذلك من نشوة وسعادة، أشبه ما تكون بنشوة من يتعاطون بعض أنواع المخدرات ثم يفيقون بعد ذلك على واقع أليم يدركون فيه مدى خروج حلمهم عن الواقع، ومدى التدمير الذى أصابهم إن كانوا قد رتبوا سلوكاً فعلياً بناء عليه (كماحدث – في الواقع – من تدمير للعراق، ومن إخراجه أصلا من معادلة القوة العربية والإسلامية المنشودة والتى كانت مدخرة

لأي صراع عربي-أجنبي، وليس عربياً-عربياً كماحدث في أزمة الخليج، للأسف الشديد).

وهكذا امتلأ الخطاب الإعلامي العراقي إبان الأزمة بكل ما يساعد على شحن وتفجير الاتجاهات العدائية نحو الكويت ودول التعاون الخليجي، وبكل ما يستثير الحماس والمناصرة للموقف العراقي، على نحو ما نقتطفه فى السطور التالية من فقرات وردت فى الحديث السابق الإشارة إليه للرئيس العراقي صدام حسين.

ـــ «إن الإنسانية الحقيقية يا ساسة العرب - الذين لا يعرف من يكون في السلطة منكم إلا القليل معنى الإنسانية الحقيقية - تكمن الآن في أن نخلص النساء الفلسطينيات والأطفال الفلسطينيين من الظلم والقتل... الذى ترتكبه العصابة الصهيونية في أرض فلسطين، وليس الإنسانية فى أن نعود بالمجموعة الفاسدة إلى الحكم مثلما تتمنون، والذى تتمنونه بعيداً جداً ولن يتحقق بعون الله. والذى يتحدث عن الإنسانية إذن عليه أن يبحث قضية فلسطين، فقد مرت عشرات السنين وشعبنا المظلوم المضطهد الذى اغتصبت أرضه وأهينت كرامته يعيش في أسوأ حال من حالات البؤس الاجتماعي ينتظر.. وهذا هو الاختبار لإنسانية من يقول إنه إنساني.. إن عليه أن يناقش بسرعة قضية فلسطين وأن يحلها. والمقياس هو الإجراءات التى اتخذوها ضد العراق، فليطبقوها على الصهاينة من مقاطعة وحرمان وأساطيل وتفتيش... إلخ. وعند ذلك نعتقد أنهم سينسحبون خلال شهر من أرض فلسطين المحتلة والأراضي العربية الأخرى المحتلة فى الجولان وغيرها».

ـــ «إننا لن نقبل التلاعب بالألفاظ في أننا نحل هذه القضية أو تلك ثم نؤجل قضية فلسطين على وعد بحلها. فنحن لا نقبل وعداً لأننا لم نر من يكون شريفاً عندما يعتلي موقع السلطة في بعض الدول الغربية.. والشرف يكون في تطبيق الكلام. ومن يطلب منا أن ننتظر على كلمة شرف فعليهم أن ينتظروا هم أيضاً.

كفى.. كم سنة مرت وشعب فلسطين ينتظر.. لقد انتهى نصف شعب فلسطين من القتل والذبح بسبب فلسطين.. بل إن المعركة بيننا وبين إيران والذين واجهوا مصيرهم أو الذين استشهدوا إنما كان حالهم كله بسبب فلسطين. وكل هذه الفتن التى تحصل في الوطن العربي وفي المنطقة كلها بين العرب وبين المسلمين إنما هي بسبب قضية فلسطين، لأنهم لا يريدون أن يكون العرب في وضع يقدرون فيه على أن يتوجهوا توجهاً جاداً لتحرير فلسطين. وقد غاب هذا الأمر عن الدبلوماسية منذ سنين طويلة.. حيث بقى العرب يلومون بعضهم بعضا على عبارتي استرجاع حقوق فلسطين واسترجاع حقوق العرب في فلسطين فى مؤتمراتهم أياماً وسنين وهم لا يملكون شيئاً.. لماذا لا تقولون تحرير فلسطين حتى تأتي الصهيونية وتجلس أمامكم قائلة إنها مستعدة، ولكن تعالوا نتناقش، وعندها اختلفوا على الكلمات.. ولكنه قبل أن يظهر لهم أي شئ بدأوا يختلفون على الكلمات في بيانات يصدرونها هم وحدهم كعرب.. وياله من ضعف ومذلة وإحساس بالصغر».

ـــ «وفي مؤتمر قمة بغداد.. كنا كمن يستجديهم ليقدموا مساعدة بسيطة إلى الأردن لكى يصمد في وجه الإضعاف الذى يقصدمنه انهيار الأردن ليجلبوا موقفا سياسياً خاصاً يخططون إليه في الأردن، ولكى ندعم منظمة التحرير الفلسطينية وأهلنا الذين تسيل دماؤهم يومياً على فلسطين.. وقد تحدثت مع بعضهم بالهاتف بعد انفضاض المؤتمر.. وقلت له يا أخي فلان أرجوك أن تساعد أبا عمار والملك حسين، أن تساعد الأردن والفلسطينيين. وقد والله طلبت من أحدهم عند باب الطائرة وأنا أودعه وقلت له : أخي أرجوك أن تساعد الأردن والفلسطينيين وكأنه استجداء على مئات من الدولارات التى لم يقدموا منها إلا الشئ البسيط القليل، ولكن المعلن الذى قدموه لجيوش الاحتلال ١١ أو ١٤ مليار دولار، ومليارات منها تجعل شعبنا في فلسطين يقاتل إلى عشر سنوات أخرى دون أن يحمل هم. ومثل هؤلاء الناس يجب أن لا نتحدث معهم بدبلوماسية وسياسة مرتاحة، فقد

نزعت الغيرة من عقولهم وتبخرت الإنسانية من ضمائرهم فتحجروا. وعندما كنا نتكلم مع بعضهم كنا كأننا نتكلم مع حجر لا يعرق جبينه من الخجل، ولا تلتمع عيناه نخوة تجاه أي قضية من القضايا الشريفة».

ولاشك أن مثل هذا الأسلوب الملتهب في الخطاب الإعلامي هو الذى ينجح في تهييج الجماهير وعامة الناس في الشارع العربي والإسلامي، حيث يمس قضية غالية عليهم. كما أن الجماهير وعامة الناس لا تنظر إلى الأمور بالمنطق العقلاني المتأني؛ الذى يمحص، ويأخذ في اعتباره الظروف الموضوعية، والشرعية القانونية والدولية. فليس هناك من شرع ديني أو وضعي يجيز الاستيلاء على ما للغير بالقوة؛ وإلا لأبيح النهب والسلب والسرقة والنصب والاغتصاب وقطع الطريق. وكلها كمانعلم مما تحرمه كافة الشرائع والقوانين المتحضرة.

ولعل هذا الخطاب الإعلامي العراقي، وبهذا الأسلوب المثير يفسر لنا كيف نجح فى استثارة مشاعر الجماهير العربية والإسلامية واستمالتها، خاصة الجماهير الفلسطينية والشارع الأردني، حيث كانا أشد التجمعات هياجاً وتأييداً للرئيس صدام حسين وللنظام العراقي، ومعاداة ومناقضة للموقف الخليجي والدول المؤيدة له.

إلا أن الإنصاف يقتضينا أن ننبه إلى أن هناك بعض المفكرين والكتاب قد خالفوا جماهيرهم فيما ذهبوا إليه، حيث امتازوا بوضوح الرؤية، وسداد الرأي، وموضوعية الحكم ونزاهته. من أمثلة ذلك المفكر والكاتب الفلسطيني الأستاذ ادوارد سعيد، والذى كتب مقالا بعد غزو العراق للكويت بما يزيد قليلا عن الشهر، وقبل بدء حرب التحالف بما يزيد قليلا عن الشهورالأربعة (في ١٩٩٠/٩/١١)، وذلك في مجلة «المجلة» موضحاً أن الرئيس العراقي «صدام حسين وحده سدد ضربة مروعة إلى الإنتفاضة الفلسطينية» جاء فيه :

ـــ «من السابق لأوانه جداً أن نحيط الآن بأبعاد التمزق الهائل الذى بدأ يعتري نسيج الحياة والعلاقات السياسية في الشرق الأوسط نتيجة غزو العراق الطائش للكويت في مطلع أغسطس (آب) الفائت.. فنحن لا نعرف سوى أن الأمور لن تعود إلى طبيعتها السابقة.. والأهم من ذلك أن هذا العمل المتهور سوف يترتب عليه قدر مروع من المعاناة الإنسانية والخراب.. وفوق هذا وذاك فإن الواقع القاسي الناتج عن غزو دولة عربية لأخرى، ومحاولة محوها من الوجود يثير في نفوسنا نحن المغتربين العرب حزناً وغضباً لا يقلان مرارة عما أصابنا عامي ١٩٦٧ و١٩٨٢.. بل إنه من بعض الوجوه أشد وطأة حتى من شعورنا بالألم في تلك الأوقات العصيبة. كانت الكويت دولة صغيرة ديمقراطية نسبياً وفيها مجتمع مركب له مشكلاته النوعية مثل أي بلد عربي آخر.. لكن ازدهارها الاقتصادي، ومؤسساتها استفاد منها العالم العربي بصفة عامة، وأبناء الكويت بوجه خاص.. وكانت أعداد كبيرة من غير الكويتيين كالفلسطينيين واللبنانيين، والإيرانيين، والمصريين، والهنود، وغيرهم تعيش هناك، وتحقق النجاح في أغلب الأحوال، وبالجهد والعرق كان أبناء هذه الجاليات يسهمون في إنعاش مجتمعاتهم الخاصة أيضاً بفضل التحويلات التى يرسلونها إلى أوطانهم. وعلينا ألا ننسى أن الجالية الفلسطينية الضخمة في الكويت كانت على جانب كبير من الأهمية بالنسبة إلى دعم الفلسطينيين في الأراضي المحتلة.. والآن انقطعت عنهم مصادر الرزق، وانتهى الرخاء.. أما أبناء الكويت الذين صاروا اليوم إما سجناء في ديارهم، أو مشردين في المنافي.. فقد انضموا إلى طوابير اللاجئين الطويلة...».

ـــ «إن أي عربي سليم التفكير لا يسعه إلا أن يمد يد التعاطف العميق والصداقة إلى أولئك الكويتيين الذين تلقوا صدمة عنيفة، وانتابهم السخط والغضب الشديدان وهم يرون ما حل ببلادهم.. فأياً كانت المثل العليا التى تنطوي عليها دعوة الوحدة العربية، فلا يمكن تطبيقها عن طريق العنف، أو فرضها بالقوة

الغاشمة.. ومهما كانت الخصومات بين الدول العربية فيجب أن تسوى من خلال النقاش والتفاوض والتحكيم وليس باستعمال قوة السلاح من جانب واحد... »

ـــ «وعلى كل حال فإن الكويت كانت مجتمعاً مزدهراً، وشعبها جزء حيوي من الأمة العربية، ومؤسساتها ناجحة متحررة.. فأي نفع من مهاجمة كل ذلك؟ وكيف أمكن اعتبار استخدام العنف ضد الكويت له ما يبرره بأي حال ؟ إن قصور الرؤية، وخرق المثل الأخلاقية والمبادئ على هذا النحو أمران مقلقان لنا جميعاً.. خاصة وأن هذا «الانتصار» الذى أعلنه صدام يبدو مشكوكاً فيه إلى الآن.. وثمة خسارة محزنة ومؤسفة، وإساءة بالغة إلى سمعة العرب والمسلمين بلا استثناء. (راجع هذه المقالة كاملة في : د. حلمي محمد القاعود، هتلر الشرق، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٩٠، ص ٢٤٣-٢٤٧).»

٤) الاحباط النفسي وتوزيع الثروة :

للإنسان دوافع نفسية Motives كثيرة يحتاج إلى إشباعها حتى يتمكن من البقاء حياً فيحافظ على بقائه وبقاء نوعه، وحتى يحقق قدراً من المتعة والسعادة، مثل دافع الغذاء والشراب والملبس والمسكن والزواج وعواطف الحب والكره والعدوان، والرغبة فى السيطرة والتفوق وتأكيد الذات وتملك الأشياء الثمينة والمحافظة على الصحة والقوة، والبعد عن الأذى والألم.. إلخ.

ويلاحظ أن المال أو الثروة هي الوسيلة الأولى والأساسية التى تمكننا من إشباع كل هذه الدوافع والحاجات (ولا نقول الوسيلة الوحيدة). وفي حالة إشباعنا لها نحس بالارتياح والطمأنينة والمتعة والسعادة. أما في حالة عدم إشباعنا لهذه الحاجات وعدم ارضائنا لهذه الدوافع، فإننا نحس بحالة الاحباط النفسي Frustration ، وهي حالة من القلق والضيق والاستياء تتزايد مع تزايد إلحاح الدافع، ومع تزايد صعوبة أو استحالة الإشباع والارضاء. وهنا يكون الشخص مملوءاً

بالسخط والرغبة في العدوان الذى يصبه أساساً على العوائق التى تحول دون الإشباع المطلوب وعلى من كان السبب في هذا الاحباط، فإن لم يتمكن من ذلك وجههما إلى أي شئ في طريقه حتى يتخلص منهما ويفرغهما من داخل نفسه، وإلا قام بقمعهما أو كبتهما فيضران بصحته.

إن الخطاب الإعلامي العراقي قد استغل هذه الحقيقة السيكلوجية في إثارة الجماهير العربية والإسلامية العريضة، والمعروف عنها معاناتها وإحباطاتها في إشباع دوافعها الأساسية التى أشرنا إلى بعضها، وذلك بسبب الفقر وقلة الموارد اللذين يميزان معظم البلاد العربية والإسلامية بإستثناء دول الخليج. فخدعهم بفكرة الاستيلاء على ثروة الكويت الغني (وبالطبع يفهم من هذا ضمناً أن هذه هي البداية) ليوزعها على فقراء الدول العربية (فيتمكنون عند ذلك من إمكانية إشباع حاجاتهم المحبطة) باعتبار وحدة الوطن العربي، وعلى فقراء المسلمين عامة، باعتبار وحدة العالم الإسلامي، وكون الإسلام رحم بين أهله. وعلى ما في هذه الفكرة من ادعاء واضح، وتبرير مصطنع لنهب ثروات الكويت لصالح العراق وحده (كما يقول بذلك الاستقراء التاريخي لنظام الحكم الحالي فيه)، إلا أن الجماهير العربية والإسلامية المحبطة – ووفق المبادئ السيكولوجية لكل من ظاهرة الإدراك وظاهرة وهم تحقيق الرغبة والتى سبق أن أشرنا إليها – سارعت إلى تصديق الخطاب الإعلامي العراقي واستجابت بالهتاف للرئيس صدام حسين ونظامه وضد الكويت ودول التعاون الخليجي وحلفائهما.

ولعل أول فقرة سبق أن نقلناها من حديث الرئيس صدام حسين عند حديثنا في البند الثاني والبادئة بـ «إذن في ثروة العرب الذى نريده هو أن يكون كل العرب أقوياء.. تعطي صورة واضحة عن كيفية لجوء الخطاب الإعلامي العراقي إلى استثارة الجماهير الشعبية العربية والإسلامية ضد دول الخليج، بدغدغة مشاعرهم واستغلال دوافعهم، فمن يكره أن يتساوى مع الأغنياء في إشباع

دوافعه وحاجاته ؟؟!! ومن يرفض أملا مثل هذا يقدم إليه؟؟!!

كما أن في الفقرة الأخيرة التى نقلناها من نفس الخطاب عند حديثنا السابق في البند الثالث والتى تبدأ بـ : «وفي مؤتمر قمة بغداد.. كنا كمن يستجديهم ليقدموا مساعدة بسيطة إلى الأردن لكى يصمد...» مثل آخر على الكيفية التى يستثير بها الخطاب الإعلامي العراقي المشاعر النفسية والاتجاهات العدائية ضد دول الخليج من منطلق فكرة «توزيع ثروة الأغنياء الممسكين على الفقراء المعوزين».

٥) شراء بعض الذمم المؤثرة في الرأي العام وتشكيله :

لقد توسع النظام العراقي ما أمكنه ذلك في استقطاب شخصيات العالم العربي والإسلامي وذات التأثير في تشكيل الرأي العام فيه، منذ بدأ حربه مع إيران خاصة، ثم زاد في ذلك تمهيداً لكسبهم في صفه عندما ينفذ مخططه لاحتلال الكويت، حتى يضمن تأييدهم له، ودفاعهم عن نواياه وتسويغ تصرفاته حتى لو كانت في حقيقتها ضارة بالعرب والمسلمين. وهكذا تصبح إيران هي البادئة بحرب العراق، ويصبح العراق في حربه لإيران إنما يدفع عن أرض المسلمين ما يريده بهم المجوس الإيرانيون عبدة النار والراغبين في استعادة ملك فارس وقوتها قبل الإسلام، ثأراً من الإسلام الذى أبادها. ولهذا فإن على العرب جميعاً أن يساعدوا العراق الذى يحارب معركتهم ضد إيران ويحمي (البوابة الشرقية للعرب).. ولاشك أنه نجح في ذلك إلى حد بعيد، فقد انخدع قطاع كبير من الجماهير العربية ومن نظم الحكم فيها بذلك، وتبنت وجهة النظر العراقية في تلك الحرب واقتنعت بها وأيدتها.

لكن كيف استطاع الإعلام العراقي أن يقلب الحقائق حتى هذه الدرجة؟!! لقد لجأ إلى رشوة الذمم. فهو يعقد المؤتمرات والندوات والمهرجانات العربية والإسلامية مرات عديدة في بغداد في كل عام. وهو في هذه المؤتمرات والندوات

والمهرجانات يدعو الأعداد الكبيرة من الصحفيين والكتاب والأدباء والشعراء والفنانين وذوي المكانة والمراكز من أنحاء الوطن العربي، ويستضيفهم فيكرمهم، ويهديهم فيغدق عليهم، وكل هدية إنما تتناسب مع مدى تأثير المهدى إليه في تشكيل الرأي العام في بلده وتأثيره في مجاله. فهؤلاء هداياهم سيارات «مرسيدس»، وهؤلاء هداياهم أقل أو أكثر.. وهؤلاء هداياهم جوائز صدام العلمية.. وهذه الجريدة العربية التي تمتدح الرئيس العراقي لها كذا.. وهذا الكاتب الذي كتب مؤيداً النظام العراقي له كذا.. إلخ.

وفي هذا المجال نشرت الأهرام خبراً وتعليقاً قالت فيهما :

«كتب أحمد الهوني - ليبي الجنسية - في جريدة العرب، التي تصدر في لندن يقول : بالأمس وقف رؤساء تحرير الصحف المصرية صفاً أمام صدام حسين يتسلمون هداياه من سيارات المرسيدس بمناسبة إعادة تعمير الفاو. وامتلأت الصحف بتوقيعاتهم تمجيداً لصدام حسين. واليوم نفس الأسماء تحاول الإساءة لصدام كذباً ودون أدلة، وتجند أقلامها للإمبريالية، وتؤيد الغزو الأجنبي لأرضنا العربية. وأول ما يجهله الهوني أن سيارات المرسيدس أهديت في مناسبة مؤتمر القمة الرباعي الذي عقد في بغداد في فبراير ١٩٨٩، وأعلن فيه قيام مجلس التعاون العربي. ولم تقتصر الهدية على المصريين فقط.. وإنما شملت كل رؤساء الوزارات والوزراء ورؤساء تحرير الصحف بدول مجلس التعاون (مصر والأردن واليمن) ولم يشمل بطبيعة الحال رؤساء تحرير صحف العراق.. فكلهم موظفون بالدولة. والمؤكد أننا لا نعرف ماذا فعل الآخرون بهدايا الرئيس العراقي.. ولكننا نعرف ماذا فعلت مصر بها. فما لا يعرفه الهوني أن الرئيس العراقي أبدى رغبة في إهداء ٣٢ سيارة لمصر، منها ٢٦ سيارة مرسيدس و ٦ سيارات تويوتا، ولم يوافق الرئيس مبارك في بداية الأمر على هذه الهدية.. ولكن أمام إلحاح الرئيس صدام فقد أمر الرئيس مبارك بألا تكون هذه السيارات لأشخاص بعينهم، وأن تدخل

كمعهدة للجهات أو المؤسسات التى تهدى إليها، وتقوم بدفع الجمارك المستحقة عليها.. ويستطيع الهوني أن يسأل نفسه بعد ذلك من الذى يمول صحيفته التى تصدر في لندن ولحساب من.. وكلها حقائق معروفة لاسبيل إلى إنكارها». (للمزيد يرجع إلى كتاب الدكتور حلمي محمد القاعود الذى سبقت إشارتنا إليه ص ١٦٢-١٦٣).

وفي نفس المجال يقول الأستاذ مصطفى أمين في عموده اليومي «فكرة» فقرة قال فيها : «ولقد حرص الرئيس حسني مبارك على ألا يقول الأسرار التى يعرفها.. فلم يقل مثلا إنه قبل الغزو بيومين حول الرئيس صدام إلى حسني مبارك مبلغ خمسين مليون دولار لمعاونة الاقتصاد المصري على متاعبه.. وقد رفض حسني مبارك أن يدخل هذا المبلغ ميزانية الدولة، ووضعه في حساب تسديد الديون التى علي العراق لمصر. توهم صدام حسين أنه اشترى مصر بالخمسين مليون دولار وبعد ٤٨ ساعة غزا الكويت، واستولى عليها مطمئناً أنه أقفل فم مصر إلى الأبد وأن الخمسين مليوناً هي دفعة على الحساب، وبعد ذلك تتوالى الملايين والبلايين.. وجاء الرسل من بغداد تلوح بملايين الدولارات، وبلايين الدولارات وبكميات ضخمة مجاناًمن البترول.. وقد رفضت مصر كل هذه العروض باحتقار..» (للمزيد يرجع إلى المرجع السابق ص ١٦٨-١٦٩).

ولا شك أن أسلوب العراق هذا في شراء الذمم قد امتد ليشمل أيضاً كثيراً من الأجهزة والتنظيمات الفاعلة على الساحتين العربية والإسلامية. وأن الكثير منها استجاب (لما هو معروف في الضعف الإنساني) وباع نفسه لمن يدفع له. فأثاروا الرأي العام في الشارع العربي والإسلامي بدعاياتهم المؤيدة للنظام العراقي والمعادية لدول الخليج.

٦) رسم صورة ذهنية سيئة عن المواطن الخليجي وحكامه :

من الطريف أن الإعلام العراقي ظل طوال حرب العراق مع إيران يشيد بدول الخليج والعالم العربي، حيث كانت تمد له يد العون الذى يساعده في صموده في هذه الحرب. فدول الخليج أمدته بعشرات المليارات من الدولارات؛ خاصة الكويت والمملكة العربية السعودية ودولة الإمارات العربية، ومصر التى أمدته بالعتاد والمعدات العسكرية التى كان في حاجة ماسة إليها. لكن بعد أن انتهت الحرب العراقية الإيرانية بدأ العراق يخطط لغزو الكويت وضمها، ويبحث عن أسباب لتبرير ذلك، فانقلب على الكويت والإمارات العربية يكيل لهما الاتهامات. وبعد أن وقفت السعودية ومصر ضد رغباته فى ضم الكويت وطالبتاه بالإنسحاب الفورى منها انقلب عليهما وأخذ يكيل لهما الاتهامات أيضاً. وهكذا فكل من أيده في نظره بطل قومي عربي إسلامي، وكل من عارضه خائن لقوميته ودينه. وسلط على هذه الدول الأربع خاصة وسائل دعايته المسمومة – وهي التى كان يكيل لها المديح في السابق عندما كانت تمد له يد العون الذى يحتاجه في حرب إيران. وهكذا كانت مصالح العراق الخاصة والذاتية والآنية هي الموجه الوحيد لوسائل إعلامه. فمن أعطاه مدحه ومن وقف ضد مطامعه هجاه وشوه صورته أمام الرأي العام الداخلي والخارجي على حد سواء. وكان من الطبيعي بالنسبة لهذا الوضع أن تستأثر الدول الأربع التى كانت أكثر الدول مساعدة للعراق بأقبح الهجاء وأشد محاولات التشويه لصورتها فى أذهان مواطنيها وأذهان الأجانب.

وركز الخطاب الإعلامي العراقي على رسم صورة ذهنية عن الخليجي خاصة وحكامه عامة على أنهم مجموعة من الأغنياء الفاسدين قصار النظر الذين يخونون وطنهم ومواطنيهم والذين يحترفون العمالة للأمريكيين والمستعمرين والذين يتاجرون بالإسلام ولا يرعون له حرمة، ولا يطبقون له شرعاً،ولا يحترمون له توجهاً، والذين يتميزون بالسفه في إنفاقهم على شهواتهم، وبالبخل فيما يقدمونه من معاونات

للدول والمنظمات والمجتمعات العربية والإسلامية المحتاجة،وبكثرة المن على من يقدمون له هذا العون الضئيل ؛ وبهذا تنطبق عليهم حالة الحسنة التى يتبعها أذى. ولنا في الفقرات التى سبق أن نقلناها من حديث الرئيس العراقي صدام حسين في البنود الثلاثة الأولى ما يؤيد تركيز الخطاب الإعلامي على رسم هذه الصورة السيئة عن الخليج ومحاولات إقناع الناس بها..

ولابد أن يترك كل هذا أثراً في شحن الجماهير العربية والإسلامية باتجاهات سلبية عدائية نحو الخليج تستثير هياجها ضده، في نفس الوقت الذى يظهر فيه النظام العراقي في صورة النظام المثالي المدافع عن الجماهير العربية والإسلامية المنهوبة حقوقها، المهددة مصلحتها، المهانة كرامتها من أنظمة حكمها. كما يظهر العراق في هذه الصورة باحتلاله للكويت، تمهيداً لما بعدها، وكأنه المخلص الذى أرسلته العناية الإلهية لتصحيح أوضاع العالم العربي وتوحيده، ووضع الأمور في نصابها الطبيعي. ومع عقلية القطيع التى تفتقر إلى النقد والوعي العقلاني وتقدير عواقب الأمور، ومع شدة الاحباطات التى تعانيها الجماهير العربية والإسلامية عامة يزداد تأثرها وتسهل استثارتها، كما حدث في هباتها لتأييد النظام العراقي وتشجيع موقفه وإدانة الكويت والدول الخليجية ودول التحالف المؤيدة لهما.

٧) تمييز عقود توظيف الغربيين في الخليج عن العرب من نفس المستوى :

في دول الخليج يعمل مواطنون غربيون (أمريكيون وإنجليزيون وفرنسيون..) مع زملاء لهم من المواطنين العرب (فلسطينيين ومصريين وسودانيين وأردنيين...) ويزاولون نفس الأعمال وبنفس درجة المهارة. ويرى المواطن العربي المقيم في دول الخليج أن هناك تفرقة شديدة بين مرتب المواطن الغربي عن مرتب زميله العربي قد يزيد عن الضعف، علاوة على امتيازات أخرى يستمتع بها المواطن الغربي. وهذا أمر لا يستسيغه العربي ولا يرى مبرراً منطقياً له، حيث تقضى العدالة – كما

يفهمها – أن يكون الأجر على قدر الجهد والمشقة والمهارة، وليس على أساس من التفرقة في الأصل أو اللون أو الجنس.

يضاف إلى هذا نظام الكفالة المعمول به في دول الخليج والذى يتشدد في عدم دخول أي مواطن عربي أو مسلم دول الخليج إلا بكفالة من مواطن هذه الدولة الخليجية، مع كثير من الحكايات والقصص التى تروى على مسامع الكثيرين من تلاعب واستغلال بعض الكافلين لهؤلاء المواطنين العرب والمسلمين الذين يخدمون في الخليج أو يريدون القدوم للخدمة فيه، وتجسيم ما يتعرضون له في ظل نظام الكفالة هذا من استذلال واستعباد ومهانة، بحيث تصبح مادة دسمة لتشويه صورة الخليجي (والتى تعرضنا لها في البند السابق) تستغلها وسائل الإعلام المغرضة، وأيضاً تصبح مادة يبرر بها الناس اختلافهم وجدلهم وتقييمهم لموقف كل من العراق والخليج من الأزمة.

إن الإنسان يحب أن يشعر بإعزاز الآخر له وتقديره لقيمته. فمن هذا يستمد الإنسان إحساسه بقيمة ذاته Self-Appraisal الذى يستتبعه بالضرورة احترامه لهذه الذات Self-Esteem ، وهما أمران يؤكد علم النفس على أهميتهما للإنسان، بما هو إنسان متعه الله بالكرامة على الحيوان.

ولاشك أن كلا من التمييز بين الغربي والعربي في عقود العمل وامتيازاته، ونظام الكفيل، يجعلان العربي المقيم وأهله ومعارفه في الموطن الأصلي أقل حماساً للدفاع عن وجهة النظر الخليجية ضد العراق الذى يفتح صدره دون نظام كفالة لكل من يريد دخوله من المواطنين العرب، حتى دون تأشيرات دخول أو خروج منذ مدة طويلة على نحو ما هو معروف. حيث تركز عليهما الدعاية العراقية ضد الخليج.

٨) ظاهرة التوحد بالقوى :

استفاد الرئيس صدام حسين ونظام حكمه أثناء أزمة الخليج استفادة ضخمة في كسب التعاطف والتأييد في العالم العربي والإسلامي من الظاهرة المعروفة في علم النفس بالتوحد Identification بالقوى. ولكي نفهم المقصود بعملية التوحد لابد لنا من أن نحدد المقصود بعملية المحاكاة Imitation (أو التقليد). فهذه العملية الأخيرة يقوم فيها الشخص بوعي وبقصد منه بتقليد ومحاكاة شخص آخر في حركاته وتفكيره ونشاطه عموماً. وعملية المحاكاة هذه مؤقتة، بحيث يعود المقلد إلى شخصيته الأصلية بعد انتهاء عملية المحاكاة، تماماً كما يقوم الممثل بتقليد نابليون في حركاته وتفكيره وعاداته السلوكية طوال اعتلائه خشبة المسرح حتى إذا انتهى من روايته عاد الممثل سيرته الحقيقية، وفي موسم مسرحي تال يمثل شخصية أخرى.. إذن فهو يضع نفسه بشكل شعوري Conscious وضعاً مؤقتاً مكان الشخصية التي يمثلها ويقلدها على خشبة المسرح. أما التوحد فهو عملية تلجأ إليها الشخصية بشكل لاشعوري Unconscious فتتمثل بهذه العملية وتستدمج اتجاهات ودوافع وسمات شخص آخر، بحيث تصبح اتجاهات ودوافع وسمات أصيلة لها، تضرب جذورها في أعماق بنائها الأساسي، وبحيث نجد أن الشخصية تهتز وتنفعل بما يهتز به وينفعل الشخص الذى تقوم هي بالتوحد معه، كما يحدث لنا جميعاً ونحن نشاهد رواية تمثل أمامنا أو مسلسلا يعرض علينا، حيث نستثار وننفعل بما يثير أبطاله من مآسي، أو ما يحققونه من نجاح، وكأنها مآسينا نحن، أو نجاحاتنا نحن. وهكذا فإن التغير الذى يحدث لنا نتيجة عملية التوحد لا يكون مؤقتاً ولا يكون مفتعلا ولا نكون متعمدينه كالذى يحدث في عملية المحاكاة. وعلى هذا فالإبن يتوحد بأبيه ولا يقلده، والبنت تتوحد بأمها ولا تقلدها، كما أن الفرد يتوحد بالشخصيات التي يرى فيها مثله العليا.

ولاشك أن القوة من ضمن المثل العليا التي يتمنى تحقيقها الناس، خاصة الضعفاء منهم ليستمتعوا بنشوة القوة التي حرموا منها. ولقد كانت تصرفات الرئيس العراقي صدام حسين وتصريحاته وبياناته وأحاديثه طوال أزمة الخليج، بل وطوال فترة حرب التحالف معه مملوءة بنغمة الغطرسة، وحماس الثقة، ولغة القوة، ودعم ذلك بضرب تل أبيب بالصواريخ وأذاع الذعر والخوف بين الإسرائيليين، فكان بذلك أول زعيم عربي يدخل الحرب إلى قلب تل أبيب، وأنعش أمل العرب والمسلمين في إمكانية تحرير الأرض المحتلة. فإذا أضفنا إلى ذلك مذلة إحساس العرب بهوان شأنهم وضعفهم، استطعنا أن نعرف كيف توحدت الجماهير العربية والإسلامية بصدام حسين وتبنت اتجاهاته العدائية نحو الخليج وفق ما شرحناه من مبادئ سيكولوچية عن ظاهرة التوحد. وهكذا أصبح ضرب التحالف وحربه للعراق هو ضرب وحرب خاصة لكل من توحدوا به، وكأن القنابل التي كانت تتساقط على العراق إنما تتساقط على رءوسهم (من توحدوا به). فعمل هذا على زيادة اشتعال غضبهم وهياجهم ضد التحالف كما رأينا.

٩) ظاهرة التوحد بالمعتدي :

شرحنا في البند السابق المقصود بظاهرة التوحد في علم النفس، ونتحدث الآن عن ظاهرة التوحد بالمعتدي Identification With The Aggressor خاصة. فالتوحد بالمعتدي هو وسيلة نفسية تلجأ إليها الشخصية إذ تتشكل في بعض جوانبها النفسية الإنفعالية والسلوكية على شاكلة من يقوم بالعدوان والتعدي وهكذا لا تعود الشخصية المتوحدة بالمعتدي خائفة مهددة بل بالعكس تماماً إذ تصبح مهددة مخيفة. وبهذا يعالج الفرد مخاوفه ويتخلص منها إذ يحس القوة والاقتدار، فعن طريق تبنيه خصائص المعتدي واستدماجه لها ولاتجاهاتها النفسية يحيل نفسه إلى شخص قوي يهدد ولا يتهدد، ويخيف ولا يخاف.

ونلاحظ أن الخطاب الإعلامي العراقي قد تبنى نغمة القوة والشجاعة وعدم الخوف والتحرق شوقاً إلى ملاقاة الأمريكيين وقوات التحالف ليجعل دماءهم تسيل أنهاراً لتروي الصحراء المتعطشة وتحيلها إلى لون الدم الأحمر، مما سهل عملية التوحد باتجاهات الرئيس العراقي صدام حسين (المعتدي على الكويت والقوي الجاسر) من جانب قطاعات فى الشارع العربي والإسلامي المملوء إحساساً بالضعف والهوان والذلة، ومختلف صنوف الخوف والقلق. وهكذا اجتمعت ظاهرة التوحد بالمعتدي (التى نتحدث عنها الآن) مع ظاهرة التوحد بالقوى (التى سبق أن تحدثنا عنها في البند السابق) لتدعم إحداهما الأخرى في تبني اتجاهات الرئيس العراقي صدام حسين فى أزمة الخليج والتوحد به.

١٠) سيادة الشخصية القبلية :

«الشخصية العربية تشيع فيها خصائص الشخصية القبلية إلى حد كبير. فمعظم العرب يعيشون على الرعي والزراعة ذات الطابع البدائي حتى عهد قريب. ومن شأن هذا النمط من العمل أن ينمي في أفراد المجتمع الانتماء والولاء للقبيلة والتعصب لها. وتصبح علاقات القرابة في ظل هذا النظام أقوى العلاقات الاجتماعية، وأوثق الروابط الانفعالية، وأكثرها حرارة وقيمة. فإذا بالأخ ينصر أخاه ولو على ظلم، ويعادي من عادى فرداً من قبيلته ولو على حق. ويلخص هذا المثل الشعبي القائل : (أنا وأخويا على إبن عمي وأنا وإبن عمي على الغريب) ظاهرة العلاقات القبلية أبلغ تلخيص.. وسمات الشخصية القبلية فيها إيجابياتها كما أن لها سلبياتها على المجتمع العربي. ولعل من أبرز إيجابيات سمات الشخصية القبلية :

أ) وحدة المشاعر العربية في مواجهة العدوان والخطر : «فالخطر عادة يوحد الأمة كعامل يقويها في مواجهته والتغلب عليه. فالاعتداء الذى تقوم به اسرائيل على أي جبهة عربية يكون له رد فعل من الغضب النفسي يعم كافة البلاد

العربية، ويدفع هذه البلاد نحو التنسيق لملاقاة هذا الاعتداء والانتصار عليه. ويكفي أن نعود بالذاكرة إلى الجو النفسي المشحون والذى عم أفراد الأمة العربية وقت معركة الكرامة، وقبلها وقت العدوان الثلاثي على مصر (عام ١٩٥٦) ووقت كارثة يونيو (١٩٦٧)، وبعدها وقت معركة أكتوبر (١٩٧٣). إن الأمة العربية في مثل هذه الظروف ينبض قلبها ويتأثر وجدانها ويتوحد انفعالها وكأنها أسرة واحدة كبيرة أو قبيلة واحدة منتشرة تسود أفرادها قرابة دموية، هي في حقيقتها وحدة سيكولوجية قبلية».

ب) **تقوية روابط القومية العربية** : «إن سمات الشخصية القبلية المنتشرة بين العرب هي التي تعمل على تغذية وتقوية ظاهرة الوحدة العربية، وكأن الأمة العربية قبيلة واحدة ممتدة على مساحة جغرافية متصلة، وفترة تاريخية مستمرة، تتكلم لغة واحدة، وتشيع بين أعضائها روابط مختلفة الدرجة. وتصبح البلاد العربية وكأن كلا منها يمثل أسرة صغيرة نسبياً من أسر هذه القبيلة الكبيرة. وهكذا نجد للمواطن العربي عضويتين في نفس الوقت، عضوية محلية، وعضوية عربية، تقوم العضوية الأولى مقام الأخوة، بينما تقوم العضوية الثانية مقام أبناء العم في المثل الشعبي سابق الذكر».

أما أبرز سلبيات سمات الشخصية القبلية فإننا نرى من أهمها :

الذاتية (ونقص الموضوعية)، في تقدير الأمور : «ويعتبر هذا من أكبر عيوب الشخصية التى تحمل الملامح القبلية. فكل ما يفعله الإخوة والأقرباء هو الصواب بعينه، وكل ما يفعله الغرباء هو الخطأ الذى ينبغي أن يقاوم. فينبغي على كل عضو في القبيلة أن يتبنى وجهة نظرها بغض النظر عما تحمل من مضمون، وإلا عد منشقاً عن القبيلة خارجاً عليها، يطارده غضبها ولعنتها. وهكذا يسكت العقل فلا يعود ينظر للأمور يفحصها بموضوعية وتجرد، ويسلم

قياده للأهواء الذاتية التى تتبناها القبيلة، فيرى صائباً ما تراه هي صائباً، ويرى مداناً ما تراه هي مداناً، وهكذا..» (لمزيد من التفاصيل راجع : د. فرج عبدالقادر طه، أضواء على سيكولوجية الشخصية العربية، في كتابه : علم النفس وقضايا العصر، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٦ ص ٢٢٧-٢٥١).

ومن هنا كان الضغط الذى مارسته الولايات المتحدة الأمريكية على إسرائيل حتى لا ترد بالمثل على الصواريخ التى وجهها العراق إلى تل أبيب فتثير الجماهير العربية تعاطفاً مع العراق، ومن هنا أيضاً كانت استجابة إسرائيل بالسكوت عن الرد، وما كان أسهله على إسرائيل في هذا الظرف بالذات، علاوة على مبرره القوي أمام الرأي العام العالمي.

لقد ظهر أثر الشخصية القبلية جلياً عندما انتصرت بعض الجماهير العربية للعراق لمجرد أنه يضرب من جانب التحالف الدولي بقيادة أمريكا البلد الغربي الأجنبي؛ عملا بقاعدة مناصرة الأخ حتى لو كان ظالماً ضد الأجنبي حتى لو كان محقاً. لكن لنا أن نتساءل لماذا غابت هذه القاعدة عندما اجتاح العراق الكويت عسكرياً. هنا تعمل العلاقات القبلية وفق مبدأ آخر خلاصته أن الخلاف بين العربي والعربي (أي بين الأخ وأخيه) مسألة داخلية صرفة لا ينبغي أن يتدخل فيها الأجنبي باعتباره غريباً بل تترك لهما، ففي مثل هذه المواقف تسمع العربي دائماً يقول للإخوة المختلفين «أنتم إخوة، لا يصح أن تدخلوا الغريب بينكم، حلوا أنتم خلافاتكم داخلكم وبأنفسكم». وكأن هذه قيمة عربية اجتماعية لا يجوز الخروج عنها، بل يعد في نظر الشخصية القبلية مروقاً لا يجوز السكوت عليه، فما بالنا لو استعان الأخ (الضعيف المظلوم) على أخيه (القوي الظالم) ليرد ظلمه بالأجنبي (القادر على القيام بهذه المهمة التى عجز الإخوة عن إنجازها)، فتطلب الأمر حرباً لهذا الأخ.

١١) الجمود الفكري والتعميم الجامد :

الفكر العربي عموماً يمتاز بقدر كبير من الجمود يؤدي به إلى صفة سلبية في الفكر هي المعروفة فى علم النفس بالتعميم الجامد Stereotypy. ويشير هذا إلى حالة من ضعف التفكير الناقد والجمود على فكرة واحدة يصعب التحول عنها أو تعديلها حتى لو دعت الظروف إلى ذلك، وحتى لو قام الدليل على بطلانها. حيث يعمل الجمود الفكري على تعطيل التأمل العقلي الحر ويكبل الذهن باعتبارات لا يفكر إلا في حدودها على نحو فكر الشخصية القبلية التى تحدثنا عنها في السابق. فينغلق الفكر، ويضيق العقل، ويسقط المنطق عند ذاك ويرفض، كنتيجة حتمية، حتى لو أيدته الشواهد الواقعية.

فنظرة العرب – جماهيرهم ومثقفيهم عامة – إلى أمريكا على أنها رأس الاستعمار وورثته وحاميته، والمعادية لكل فضيلة، والعاملة على استغلال كل الشعوب، خاصة الشعب العربي مع نهبه وإضعافه وانها بلد لا يهمها إلا مصلحتها، وإسرائيل حارسة مصالحها في المنطقة، ومن هنا فلا يهمها إلا تحطيم أي قوة تظهر في العرب تأميناً لبقاء مصالحها، وخوفاً على إسرائيل منها. وهي لهذا قد حركت العالم، وعبأته (بما فيه الاتحاد السوفييتي السابق والذى أصبح ذيلا هو الآخر لها) كما جندت مجلس الأمن؛ ضماناً لتدفق البترول العربي إليها، وتدميراً لقوة العراق النامية خوفاً على إسرائيل منها، وحماية للنظم الخليجية المتعاونة معها. وعلى هذا فأمريكا هي العدو رقم (١) للعالم العربي. ولهذا فقد انتهزت أزمة الخليج واستيلاء العراق على الكويت لتدمير العراق، وبالتالى رفع بعض المناهضين للإستعانة بالأمريكيين ودول التحالف شعاراً يقول بأنهم لم يجيئوا إلى الخليج «لتحرير الكويت وإنما لتدمير العراق». وذهب البعض منهم أيضاً إلى ما هو أبعد من هذا فقالوا بأن الأمريكيين قد اتفقوا سراً مع الرئيس صدام – باعتباره عميلا لهم – ليقوم بغزو الكويت حتى يعطيهم مبرراً أمام الرأي العام العربي والعالمي لتدمير العراق، وأن

الرئيس صدام قد رضى بتدمير العراق نظير وعد من جانب الأمريكيين بجائزة كبيرة أفضل له وأهم؛ ودليلهم في ذلك أنه كان بإمكانهم إسقاطه بسهولة لكنهم لم يفعلوا لأنه أفضل لهم من سواه. وأن التاريخ سوف يزيح الستار عن كل ذلك مستقبلا.

تلك مجمل الصورة الذهنية الغالبة عند العرب عن الأمريكيين. ولا شك أن التاريخ العدائي لمواقف الأمريكيين من القضايا العربية يبرر إلى حد كبير هذه الصورة. فالعرب لم ينسوا بعد حماية الأمريكيين لإسرائيل ودورهم معها في تحقيق الهزيمة المنكرة لهم عام ١٩٦٧. وتكرار أمريكا لنفس الدور المساند لإسرائيل ضد العرب في حرب ١٩٧٣. ومواقفها المساندة لإسرائيل في مجلس الأمن والأمم المتحدة ضد العرب ولو بالباطل.

لكن هذا شيء، وإمكانية تغيير مواقفها من العرب وتعديلها شيء آخر. وكما يقال في المثل : «لا شيء يبقى على حاله». أما أن نجمد عند هذه الصورة الذهنية الكريهة عن أمريكا، ونفسر من خلالها كل مواقفها، فهذا ظلم لأمريكا بمثل ما هو ظلم لنا أنفسنا. إذ أن أمريكا – أو أي بلد في العالم – لاشك تحب أن تكون صورتها في ذهن العرب وغيرهم صورة طيبة حسنة، مما يدفعها إلى اتخاذ مواقف مفيدة للعرب حتى تغير صورتها للأحسن، فإن اتخذت هذه المواقف ومع ذلك لم يغير العرب تصورهم عنها وظلوا يعتبرونها عدوهم رقم (١) فقد ييأس الأمريكيون من ذلك ويقابلون العداء العربي بالمثل، وذلك أمر لا يستهتر به إلا المغيبون عن الوعي، أصحاب النظر غير الواقعي، الواهمون بقوة زائفة لديهم توردهم موارد التهلكة، كما فعل العراق حديثاً، ومن قبله مصر وسوريا (عام ١٩٦٧)، فكان من ذلك ما كان، وما ظل كائناً حتى اليوم للأسف الشديد. ألا ليتنا نتعلم من أخطائنا!!

ولقد أيد العالم كله تقريباً – بدليل قراراته في مجلس الأمن – ومعظم العالم العربي والإسلامي موقف الخليج والكويت، وأدان بشدة وصراحة موقف العراق، إلا

أن أصحاب الفكر الجامد لا يهمهم من هذا كله شيء، ولا يغير هذا من صورتهم الذهنية عن الأمريكيين، خاصة في موقفهم من أزمة الخليج.

إن الجمود الفكري يؤدي إلى عدم تأثر الرأي أو الحكم السابق بتغير الظروف التي أدت إليه، فإذا بالرأي يصبح غريباً شاذاً مستعصياً على التبرير في نظر الآخرين. كما أنه يؤدي أيضاً إلى لوي الحقائق والمشاهدات حتى تتفق مع الفكرة الجامدة ولا تحيد عنها. ونتيجة لشيوع الجمود الفكري في قطاع كبير من العالم العربي لا يعود العالم الخارجي يقر منطقه، أو حتى يعرف توجهاته، إذ تغيب الموضوعية، وتسود الذاتية، وتختلط الأمور. ويسهل على المفكر النزيه أن يكتشف مصداق هذا. ففي مقال للأستاذ تركي الحمد نشرته جريدة الشرق الأوسط بعددها الصادر في ١٩٩٢/٤/١٢ تحت عنوان : «**عجيب أمر هذه الأمة**» يقول :

«عجيب أمر هذه الأمة، باختلاف طبقاتها وفئاتها وأفرادها، إذ يبدو أنها لا تعرف ماذا تريد، أو أنها لاتريد أن تعرف ماذا تريد. والنتيجة واحدة في خاتمة المطاف، سببها سرابية الهدف وزئبقية المنهج وفوق هذا وذاك ضبابية العقل والذهن. في كل يوم وفي كل حادثة تتبدى هذه المأساة العربية مما يعطي الانطباع أن العرب، بالإضافة إلى الملاحظات السابقة، أمة لا تستفيد من دروس التاريخ أو أنها في حالة انتحارية معينة لاتريد أن تستفيد من هذه الدروس ولا من وتيرة الأحداث وتسلسل الوقائع.. هنا يظهر أثر العقلية العربية على التعامل مع الأحداث إذ تفصح عن نفسهامن كونها عقلية عاطفية عشوائية سريعة التأثر ومندفعة.. ومن ناحية أخرى فإن ذات القرار ٢٤٢ عندما صدر عام ١٩٦٧م رفض من ذات الأفراد والهيئات التي ترفض اليوم تصريحات الدكتور غالي والتي، أي هذه التصريحات، تصب في ذات المصب وتنهل من ذات المنهل الذى كان يستقي منه هؤلاء رفضهم تلك الأيام من حيث إنه مجرد توصية وبالتالي غير ملزم من حيث مسئولية الهيئة الدولية على فرضه (فالقرار ٢٤٢ يستند إلى الفصل السادس من

الميثاق فعلا والذى يركز على تسوية المشكلات الدولية بالطرق السلمية دون استخدام القوة من قبل الأمم المتحدة، أما القرارات الصادرة بشأن العراق مثلا فهي تستند إلى الفصل السابع من الميثاق والذى يخول الهيئة الدولية استخدام آليات معينة لتطبيق القرارات. وبالتالي فإن الدكتور غالي غير ملوم عندما يوضح هذه النقطة).. إنهم (أي العرب) يقبلون اليوم، وبخنوع، ما رفضوه بالأمس، ويتهمون اليوم القائلين بعدم إلزامية القرار بنفس التهم التى كالوها بالأمس لمن قبل القرار وقال بإلزاميته. تغيرت المواقع وتغيرت معها صفات الخيانة والوطنية التى هي دائماً وفق العقلية العربية مع طرف دون طرف.. كل ذلك يذكرنا بأزمة نيل نجيب محفوظ جائزة نوبل للأدب، إذ قبل ذلك كان العرب يتهمون مانحي الجائزة بالانحياز وعدم الاعتراف بهم، أما وقد أعطيت لنجيب محفوظ فإن ذلك ليس اعترافاً بهم وبأدبهم بقدر ما هو مكافأة محفوظ على مواقفه السياسية وخاصة الموقف من كامب ديفيد. لقد بدأت اقتنع أننا أمة لايرضيها شئ. وعندما تقبل شيئاً في خاتمة المطاف فإنه يكون أقل بمراحل مما كنا نرفضه ولا نقبله في الماضي. ونظرة بسيطة إلى تاريخ القضية الفلسطينية توضح هذه النقطة. بل انظروا إلى حال العراق اليوم الذى كان رافضاً لكل شئ قبل الحرب وهو اليوم يقبل أي شئ. أليس في كل ذلك نوع من الكوميديا والتراجيديا في ذات الوقت...».

فهل نستغرب بعد هذا أن تؤيد بعض الأنظمة العربية، وأن تهب بعض هيئات ومنظمات وأحزاب وجماهير عربية تأييداً لموقف العراق في الأزمة، وتشجيعاً لما فعله الرئيس صدام حسين ونظامه بالكويت والخليج، ومناداة بسحق أمريكا والدول المتحالفة لرد العراق عن غيه وإعادة الكويت إلى أهلها، دفاعاً عن الشرعية الدولية والقيم الإنسانية التى انتهكها العراقيون عند اجتياحهم للكويت وقتلهم واغتصابهم ونهبهم للمقيمين فيه من أبرياء لم يرتكبوا ذنباً يبرر ما وقع عليهم.

١٢) الدوافع العدوانية والميول السادية والمازوخية :

«تعتبر الدوافع النفسية التدميرية Destructive Motives (أو الدوافع العدوانية) من بين العوامل السيكولوجية التى تمهد للحرب وتيسر الانزلاق إليها وتزينه، وتستبعد في نفس الوقت الحل السلمي لما يجابهنا من مشكلات. وينظر إلى هذه الدوافع أحياناً – كما هو الحال عند معظم المحللين النفسيين – على أنها دوافع فطرية غريزية في الإنسان تدفعه للقيام بسلوك مدمر سواء له أم لغيره. وهذه الدوافع التدميرية يمكن أن تكون مكشوفة محسوسة وشعورية، كما يمكن أن تكون متخفية ولاشعورية. فإذا ما قمنا بتحليل موضوعي وأمين للعوامل المتخفية وراء حرب كالعالمية الثانية، أو الفيتنامية الأمريكية، فسوف نقتنع مباشرة بدور هذه الدوافع التدميرية؛ أعني غريزة العدوان. ومن الملاحظ أن هذه الدوافع التدميرية تلعب نفس الدور في كل الحروب التى تنشأ في أرجاء الدنيا. فعلى سبيل المثال، لا يستطيع الفرد أن يقبل – إذا كانت نظرته موضوعية نزيهة – تلك التبريرات التى تقدمها إيران ولا العراق لحربهما المجنونة؛ خاصة وأننا نعلم أن كلا منهما تدعي أنها بحربها هذه إنما تدافع عن الإسلام. فمما لاشك فيه أن الحروب تستطيع أن تشبع بشكل كبير الدوافع الإنسانية التدميرية عن طريق التدمير الشديد الذى تحدثه في كل من البشر والاقتصاد على السواء. لقد كتب أنتوني ستور Anthony Storr على غلاف كتابه المعنون : العدوان البشري Human Aggression (الذى طبعته سلسلة Pelican عام ١٩٨٥) هذه العبارة : «إن الحقيقة الكئيبة هي أننا أقسى المخلوقات على الأرض وحشية وأبعدها عن الرحمة». (للمزيد راجع : البحث الذى ألقيناه في المؤتمر الدولي الثامن لعلم النفس عبر الحضاري والذى عقد باستانبول بتركيا في يوليو من عام ١٩٨٦، ثم نشرت ترجمة له في مجلة علم النفس، عدد (٢) عام ١٩٨٧، بالقاهرة، بعنوان : «هل حقاً الإنسان يبحث عن السلام؟ «نظرة نفسية»).

هذا، وترتبط بالدوافع العدوانية ما تعرف بالميول السادية Sadistic Tendencies والميول المازوخية Masochistic Tendencies . ونحن نعتقد أن هذه الميول هي أيضاً :

«عامل نفسي آخر متخفي من العوامل التى تيسر التورط في الحروب وتقاوم تحقيق السلام. وتعتبر هذه الميول عرضاً مرضياً نفسياً يمكن ملاحظته في بناء الشخصية عند بعض الأفراد، حيث تدفعهم هذه الميول إلى اشتقاق لذة شديدة من إيقاع الأذى بالآخرين، ومن ارتكابهم للأفعال العدوانية والوحشية (في حالة اشتداد السادية عند الفرد)، وفي نفس الوقت أيضاً من وضع أنفسهم موضع الإهانة والتحقير والإيذاء والعقاب (في حالة اشتداد المازوخية عند الفرد).. ففي مثل هذه الحالات تصبح الحرب إشباعاً مثالياً لمثل هذه الشخصيات المضطربة؛ حيث إنها تؤدي إلى ضرر مفزع لكل من يتورط فيها من كلا الجانبين» على نحو ما ورد في المصدر السابق.

ومن هذا المنطلق وبشكل لاشعوري Unconscious غالباً هللت وسعدت بعض الجماهير العربية والإسلامية باحتلال العراق للكويت وعدوانه عليها وتدميره لها. (إشباعاً للدوافع العدوانية والتدميرية، وإرضاء للسادية)، كما شجعت العراق لاستمراره في هذا النهج ضماناً لاستمرار هذا الإشباع بتدمير العراق أيضاً، وهو ما حدث بالفعل. أما العراقيون أنفسهم والذين شجعوا نظامهم وساندوه، فكان من منطلق إشباع ساديتهم نحو الآخرين (الكويت) وفي نفس الوقت مازوخيتهم دون وعي شعوري حيث أدى تشجيعهم ومساندتهم لنظامهم واستمرارهم في غيهم إلى كل ما أصابهم الآن من أضرار وتدمير ترثى له قلوب العرب والمسلمين في كل مكان.

١٣) التعاطف الوجداني :

التعاطف الوجداني Sympathy ظاهرة سيكولوجية تبدو في ميل الناس إلى المشاركة الوجدانية في مشاعر الآخرين وإنفعالاتهم، حتى دون وجود رابطة قرابة أو

معرفة بهم، فإذا بنا نتألم لآلامهم ونفرح لمسراتهم. فما بالنا لو كان هؤلاء الآخرون إخوة لنا في العروبة والإسلام. وما بالنا أيضاً لو كان ما يصيبهم تدميراً شديداً وضرراً بالغاً، وما بالنا ثالثاً لو كان أكثر الضرر يصيب أناساً مدنيين لا ذنب لهم إلا أن نظام حكمهم قام باعتداء ظالم لا يد لهم فيه، وهم أصلا الذين يتلقون العقاب ويكتوون به، بينما المسئولون أصلا لا يد تطالهم، بدليل بقائهم حتى الآن مستمتعين بسلطانهم ونفوذهم.

فضرب ملجأ العامرية في بغداد، وقتل مئات الأطفال والنساء والمدنيين العراقيين الذين احتموا فيه من قصف قوات التحالف، وعرض هذه الجثث في التليفزيون أمام ملايين المشاهدين، قد أثار موجة من السخط العارم عمت العالم أجمع؛ فما بالنا بتأثيرها على الجماهير والشارع العربي والإسلامي من منطلق التعاطف والمشاركة الوجدانية.

هذا، إلى جانب إتهام الكثيرين من أنحاء العالم – وليس من العرب فقط – الأمريكيين خاصة بضربهم أهدافاً عراقية ليست عسكرية، بل تحمل قيمة حضارية كبرى. فالقيم الحضارية تستأثر بالإهتمام العالمي فما بالنا بإهتمام أصحابها. وفي مقال لعبدالرحمن منيف بعنوان « «أي عالم سيكون؟ المثقفون العرب والنظام الدولي الجديد». يقول في هذا الموضوع : «الآن، الطائرات الأمريكية الحاملة لآلاف الأطنان من المتفجرات والتى تريد أن تلقي حمولتها، أن تتخلص من هذه الحمولة، لكي تعود إلى قواعدها بسلام، هذه الطائرات تقوم الآن بما عجزت عنه آلاف السنين والمليئة بالقسوة والحروب، إنها تدمر الحضارة والآثار والنصب التاريخية. جسر الشهداء الذى قصف، أقدم جسر في بغداد، يسمى الجسر القديم، وهو بإتجاه واحد، لأنه لا يحتمل سيارتين. وعلى هذا الجسر سقط شهداء بورتسموث عام ١٩٤٧، وضمنهم شقيق الشاعر محمد مهدي الجواهري. لماذا يقصف هذا الجسر الآن ؟ وأهم نصب في المنطقة العربية، وربما في مساحة أوسع،

نصب الحرية، الذى أبدعه جواد سليم، ويطيب لي أن تقول زوجته الإنجليزية كلمة للدفاع عن نصب زوجها، والذى يقابل أحد الجسور في بغداد، يحتمل أن يكون قد قصف أو أنه موضوع على القائمة! وكذلك الحال بالنسبة للآثار التاريخية التى عمرها آلاف السنين. إن شعباً متحضراً يمتلك نظرة تاريخية لا يمكن أن يتعامل مع الآثار والفن بهذه الطريقة، ولا يمكن أن تبلغ به القسوة أن يضع على قائمة أهدافه ما يعني تاريخاً وحضارة وشيئاً عزيزاً يهم الكثيرين، يهم الجميع. قد أكون مدفوعاً بنوازعي الأدبية والفنية وأنا أتحدث عن الحرب..»، (مقال منيف، في كتاب : «عودة الاستعمار من الغزو الثقافي إلى حرب الخليج»، إشراف رياض نجيب الريس، سلسلة كتاب الناقد، رياض الريس للكتب والنشر، لندن – قبرص، ١٩٩١، ص ٣٣-٤٤).

ولاشك أن الخطاب الإعلامي العراقي قد استغل بشاعة الخطأ الجسيم الذى وقعت فيه أمريكا وقوى التحالف بضربها أهدافاً حضارية ومدنية – ليستَ طرفاً في الحرب – فقام بتأليب العالم عامة والجماهير العربية والإسلامية خاصة مكوناً إتجاهاً مضاداً لأمريكا وقوى التحالف والدول الخليجية. وعمل هذا على سهولة طرح وتبرير قناعة مضادة للأمريكيين بأنهم إنما جاءوا إلى الشرق الأوسط «لتدمير العراق، وليس لتحرير الكويت». وفي مثل هذه الكوارث الكبرى تتفجر النفس تعاطفاً وجدانياً، دون أن تتيح للعقل فرصة للتوقف فاحصاً الأسباب التى دعت إلى ذلك، حتى يبطل العجب كما يقول المثل العربي المشهور.

١٤) الإستعانة بغير المسلمين :

لعل من أهم ما عمل على شق الصف العربي والإسلامي في اتجاهه إزاء حرب تحرير الكويت (رغم وضوح الحق والعدل وقوانين الشرعية) وأعطى مبرراً قوياً لأنصار العراق أن يؤلبوا الجماهير ضد الكويت والخليج؛ هو استعانة الخليج بقوات

التحالف الأجنبية غير المسلمة. فعلى الرغم من افتاء كبار علماء الإسلام بجواز ذلك – على نحو ما سبق أن أشرنا في البند الأول من حديثنا هذا – إلا أن بعض الإسلاميين قد ظل جامداً عند تحريم ذلك شرعاً. استناداً إلى أن ظاهر بعض آيات القرآن الكريم قد حض على عدم اتخاذ المؤمنين للكافرين أو اليهود أو النصارى أولياء. ولعل من أوضح الآيات التى استندوا بها على ذلك الآية الكريمة رقم ٥١ من سورة المائدة : **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين﴾**.

وقناعتنا أن مثل هذه الآيات نزلت كتوجيه إلهي في مواقف خاصة كان يتعرض لها الرسول ﷺ، ومرتبطة ومشيرة إلى أفراد معينين، وبالتالي فإن الأمر هنا ليس توجيهاً عاماً. إذ لا يعقل أن الدين الإسلامي الذى شهر بالتسامح وبالحض على الحسنى في السلوك والدعوة أن يأمر بمقاطعة من يختلف عنه في العقيدة، خاصة فى أيامنا هذه حيث يعيش المسلمون والمسيحيون واليهود جيراناً ومواطنين جنباً إلى جنب في معظم مجتمعات العالم، تتشابك مصالحهم ويتعاونون على خير البشرية، ودفع الظلم، وإعمار الكون وبناء الحضارة، حتى أننا نجدهم يحاربون ويقاتلون في الجيش الواحد في الدولة الواحدة ضد عدوها الذى قد يكون من نفس دينهم. ففي المقاومة الفلسطينية يقاتل الفدائي المسلم مع الفدائي النصراني جنباً إلى جنب ضد المعتدي الاسرائيلي، كما يقاتل المصري النصراني جنباً إلى جنب مع المصري المسلم كما حدث في معارك التاريخ الحديث أعوام ١٩٥٦، ١٩٦٧ و ١٩٧٣.

ولاشك أن الاستعانة بغير المسلمين في الدفاع عن المسلمين وعن بلادهم وحمايتها من كيد الأعداء أمر جائز شرعاً.. بل واجب متحتم عند الضرورة إلى ذلك.. لما في ذلك من إعانة المسلمين وحمايتهم من كيد أعدائهم، وصد العدوان المتوقع عنهم.. وقد استعان النبي ﷺ بدروع استعارها من صفوان بن أمية يوم

حنين.. وكان كافراً لم يسلم ذلك الوقت.. وكانت خزاعة مسلمها وكافرها في جيش النبي ﷺ في غزوة الفتح ضد كفار أهل مكة.. وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال : «إنكم تصالحون الروم صلحاً آمناً، وتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم فتنفرون وتغنمون» أخرجه الإمام أحمد وأبو داوود بإسناد صحيح. (راجع بيان الشيخ عبد العزيز بن باز الذى نشره د. حلمي محمد القاعود في كتابه الذى سبقت الإشارة إليه ص ٢٦٣-٢٦٩). كما أن كبار فقهاء المسلمين ومفتييهم مثل الشيخ متولي الشعراوي والشيخ محمد الغزالي والدكتور محمد سيد طنطاوي وغيرهم كثير، قد حبذوا، بل أوجبوا شرعاً ضرورة الاستعانة بغير المسلمين لدفع بلاء وقع بالمسلمين، وفق قاعدة الضرورة؛ على نحو ما أشرنا في حديثنا في البند الأول. وكل هؤلاء لا يشك في سعة علمهم ولا في نزاهة رأيهم إلا من أعمتهم أهواؤهم عن إدراك الحق والاعتراف به.

لقد لعب الخطاب الإعلامي العراقي (مستعيناً بعجز الفكر العربي وجموده) بقضية تحريم استعانة المسلم بغير المسلم مستشهداً بنصوص حرف تأويلاتها وفق أهوائه، وغطى على ملابساتها، ونزعها من سياقها. ولما كانت الجماهير العربية والإسلامية شديدة التقديس لكل ما يتعلق بالإسلام ونصوصه، حتى دون نقاش عقلاني يبين مغزاها الحقيقي وتوجيهاتها الأصيلة الخيرة، فقد أزاد هذا من هياجها واتجاهاتها السلبية نحو الكويت والخليج الذى استعان بالأجنبي.

وإلى هنا ننتهي من عرض ومناقشة أهم العوامل النفسية والاجتماعية التى أسهمت في تكوين اتجاهات عدائية نحو دول الخليج أثناء حرب تحرير الكويت، وفجرتها في الشارع العربي والإسلامي في تجمعات هوجاء ترفع شعار التأييد للنظام العراقي وتطالبه باستمرار الإتجاه الذى انتهجه وعدم العدول عنه أو التراجع، وتعده بالمناصرة والتأييد، وتدعو ضد الحكام العرب الذين يؤيدون التحالف، وتطالب شعوبهم بالإنقلاب عليهم.

ولابد أن نؤكد هنا أن العوامل النفسية ليست الوحيدة وراء أزمة الخليج أو تكوين الاتجاهات المضادة للخليج في الشارع العربي والإسلامي، بل هناك عوامل أخرى كثيرة اقتصادية وتاريخية وجغرافية وسياسية.. ربما كانت أسبق أو أشد تأثيراً، لكن كل ما نحاوله ونجتهد فيه هنا إنما هو إبراز دور العوامل النفسية دون إدعاء أنها الوحيدة (حتى لا نتهم ظلماً بأننا نفسر التاريخ تفسيراً سيكولوجياً خالصاً)، تلك العوامل التى درجنا على إهمال النظر إليها في مثل هذه الدراسات، بينما هي فاعلة، لها حضورها، شئنا أم أبينا.

لكن يحسن هنا أن نوجه نظر القارئ إلى ثلاث ملاحظات ضرورية، وإن كنا نعدها من نافلة القول :

أولاً : أن هذه العوامل كان يتضافر بعضها أو أكثرها أو كلها في وحدات دينامية متآزرة فى تأثيرها في تكوين الاتجاه السلبي من دول الخليج وتفجيره، ولم تكن تعمل منعزلة بعضها عن بعض.

ثانياً : من المتوقع أن تكون هناك عوامل معينة قد قامت بدور أكبر لدى جماهير شعب معين أو بلد معين، أو لدى تجمهر بالذات نظمته هيئة معينة أو حزب معين أو جماعة معينة في منطقة معينة، في حين كان تأثير عوامل أخرى أقل أو شبه منعدم، وفق كل حالة على حدة.

ثالثاً : لقد كشفت حرب تحرير الكويت بما تم من استقطاب حاد وشق للصف العربي والإسلامي مدى تخبط العالم العربي والإسلامي، ومدى ضبابية الرؤية فيه، ومدى مهارته فى التلاعب بالنصوص الدينية وتحميلها كل ما يريده من مضامين ومعاني وفق هواه الخاص ونزعاته الذاتية حتى لو كانت شديدة التناقض، ومدى ابتعاده عن لغة العصر ومنطقه وفهمه لواقعه، بما يؤدي به إلى التصادم مع العالم، حيث كان العالم كله في كفة يقابلها كثير من جماهير العالم العربي

والإسلامي في الكفة المعادية، والمناصرة للظلم رغم وضوح الحق؛ سواء احتكمنا إلى النصوص الدينية أم إلى النصوص الوضعية، في نزاهة وعدم تحيز.

ثانياً: توصيات لعلاج الاتجاهات المضادة لدول مجلس التعاون الخليجي

وكنا في الجزء الأول من نتائج هذه الدراسة على العوامل النفسية والاجتماعية التي ساعدت على تكوين اتجاهات مضادة للكويت ولدول مجلس التعاون الخليجي في الشارع العربي والإسلامي، وتفجيرها على هيئة هياج ومظاهرات طوال أزمة احتلال وتحرير الكويت. ونخصص هذا الجزء الثاني لاقتراح بعض التوصيات لتغيير هذه الاتجاهات المضادة وعلاجها، وتنمية اتجاهات إيجابية محلها، مستعينين في ذلك بما توحي به نتائج الجزء الأول من دراستنا هذه، وبما ترسب في أذهاننا من مناقشات وتعليقات قرأناها أو سمعناها عن احتلال الكويت وحرب تحريره، وأيضاً بما هو معروف في علم النفس الاجتماعي عن وسائل تغيير الاتجاهات وتعديلها.

ويحسن أن نقرر منذ البداية – حتى لا يتوهم أحد – أن اتجاهات الأنظمة والجماهير والشعوب العربية والإسلامية، كانت في غالبها مؤيدة للكويت ودول الخليج، وكانت في أقلها معارضة. بدليل أن معظم البلاد العربية والإسلامية ذات الوزن كانت مؤيدة للكويت ودول الخليج ولم تخرج فيها مظاهرات مضادة إلا قليلة وبأعداد مشاركة قليلة أيضاً. فالكويت ودول الخليج هي أولاً وأخيراً دول عربية وإسلامية تمثل احتياطياً يحرص عليه كل عربي ومسلم غيور على وطنه ودينه، علاوة على أنها مصدر رزق وإعاشة لقطاعات عريضة من بعض مواطني البلاد العربية والإسلامية، ومصدر عون مادي ومعنوي لمعظم الدول العربية والإسلامية، إلى

جانب أن الحق كان في جانبها بشكل واضح. إلا أن ما نهدف إليه الآن إنما هو توصيات لإزادة الاتجاهات الإيجابية نحو دول الخليج، وتقليص الاتجاهات السلبية حتى أدنى حد لها، إذ لا يعقل أن تلغى تماماً، لأن هذا لا يتفق مع طبيعة البشر، حيث يستحيل اجتماع الجميع على قلب رجل واحد، كما يقول المثل «إرضاء الناس غاية لا تدرك» والقصد هنا – بطبيعة الحال – إرضاء كل الناس.

ومن هذا المنطلق نوصي دول الخليج لتقليص الاتجاهات السلبية أكثر وأكثر، ولإزادة الاتجاهات الإيجابية نحوها أكثر وأكثر بما يلي :

١) تكوين هيئة شرعية تمثل الوطن العربي والإسلامي لتحديد حكم الإسلام في زكاة البترول العربي :

بني الخطاب الإعلامي العراقي في استثارة الشارع العربي والإسلامي (والذى يعانى أغلبه من أزمات اقتصادية خانقة تجعله سهل الاستثارة) على أن الإسلام لا يقر أن تكون هناك بلاد بترولية شديدة الثراء يعيش مواطنوها وحكامهم في رفاهية شديدة وبلاد أخرى فقيرة يعيش مواطنوها في ضنك شديد. وأن الرفاهية الشديدة كالضنك الشديد تؤدي إلى الفساد والإفساد. وأن العالم الغربي بقيادة أمريكا يكرس هذا الوضع، حتى لا تقوم للعرب أو للمسلمين قائمة فيفسد البعض من الترف، ويفسد الآخر من الفقر. ولا شك أن دعاية كهذة بين جماهير تشكو الفقر ستجد تصديقاً سهلا لها (راجع البنود الأولى التى كتبناها في الجزء السابق من هذه الدراسة).

ولهذا ننصح ببيان حكم الشرع الإسلامي في هذه الثروة البترولية، باعتبارها ملكاً لأصحابها، فهل أوجب الله عليها زكاة ؟ وما مقدارها؟ وما أوجه صرفها؟ وما وجه الشبه بين الثروة البترولية والثروة الشخصية التى يملكها الأفراد وتجب عليها الزكاة فرضاً من الله.. فالإسلام كما نعلم لا يقر الاستيلاء على مال الثري حيث يقول الله في كتابه العزيز : **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم**

بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ولا تقتلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيماً. ومن يفعل ذلك عدواناً وظلماً فسوف نصليه ناراً وكان ذلك على الله يسيرا» «سورة النساء آية رقم (٢٩ و ٣٠)». لكنه يوجب عليه دفع نصيب منه كزكاة لمستحقيها. بل إن الإسلام قد جعل الزكاة حقاً لمستحقها واجبة الأداء وليست صدقة اختيارية؛ والحق معناه المطالبة به والدفاع عنه بحق الله. فالله جل شأنه يقول في سورة المعارج الآيتين رقمي ٢٤، ٢٥ ﴿والذين في أموالهم حق معلوم. للسائل والمحروم﴾ فهنا وصف الزكاة بأنها حق فرضه الله على الغني للفقير حتى يمكن أن يعيش كريماً.

إذن – في نظر الإسلام – ليس من حق للفقير على الغني إلا ما أوجبه الله وفرضه وحدده، وإذا ما أدى الغني هذا الحق للفقير فلن تعود هناك للفقير من حقوق يحق له أن يطالب بها. ويصبح مال الغني محمياً بشرع الله لا تجوز استباحته كما فعل النظام العراقي أو أراد بالكويت. فإذا قسنا ما يجب على الدول الغنية نحو الدول الفقيرة، بما يجب على الأغنياء حيال الفقراء، فما هو حق الدول الفقيرة؟ لن يستطيع الإجابة الشرعية على هذا إلا متخصصو الفقه الإسلامي وذوو الأهلية للفتوى فيه. لذا نوصي بتكوين لجنة أو هيئة من هؤلاء (يمثل فيها فقهاء من الدول البترولية والدول الفقيرة) لبيان حكم الشرع في هذه القضية. وكما سبق أن أشرنا فإن البلاد العربية والإسلامية تقدس أحكام الشرع – كما هو الحادث في المواريث وتقبل بها دون نقاش، وهكذا لا يعود يزياد المزايدون في هذه القضية.

أما ما تتطوع به الدول البترولية فوق أنصبة الزكاة التي فرضها الله، فهذا أمر اختياري ليس لأحد فرضه أو المطالبة به، كما فعل العراق في أزمة الكويت.

٢) الإعلام الخليجي والمن بمساعدات الخليج للدول العربية المحتاجة :

بالخطاب الإعلامي الخليجي ضعف عام تسهل ملاحظته، يتسبب في استثارة الاتجاهات السلبية نحو الخليج. من أمثلة الفخر الزائد، والعجب الشديد، والترديد الممل لأخبار معروفة، قد تمس مشاعر بعض الدول العربية أو الإسلامية وشعوبها، مثلما يحدث عند تقديم بعض هذه الدول مساعدات لبلد عربي أو إسلامي. فإذا بصحافتها وإذاعتها ومختلف وسائل إعلامها تردد ذلك، مع ما في هذا من مناقضة صريحة للتوجيه القرآني الكريم في مثل هذه الحالات، حيث يقول الله تعالى : **﴿الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون. قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم. يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شئ مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين﴾** سورة البقرة، الآيات أرقام : ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤. (والمن هو التحدث بما أعطى حتى يبلغ ذلك الآخذ فيؤذيه، والمن من الكبائر، والأذى : السب والتطاول.. روى مسلم عن أبي ذر أن النبي ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى، والمسبل إزاره، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب..» الإبطال للصدقات إذهاب أثرها وإفساد ثوابها، فالمن يبطلها والأذى والرياء (كالذى) أي لا تبطلوا مشابهين للذى (ينفق ماله رئاء الناس) أي ينفق مرائياً لا يقصد بذلك وجه الله وثواب الآخرة، بل يفعل ذلك لمجرد أن يراه الناس، استجلاباً لثنائهم عليه ومدحهم له»، (راجع : محمد سليمان عبدالله الأشقر : زبدة التفسير من فتح القدير، دولة الكويت، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الطبعة الثانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ٥٥-٥٦).

فإذا أضفنا إلى ذلك أنفة العربي وكبرياءه الشديدين المعروف بهما سيكولوجياً، حتى أنه في كثير من الحالات يتحرج عن المطالبة بحق سبق له أن أعطاه، فما بالنا بوقع الأذى عليه من كثرة المن من أخ ساعده في شئ. ونعتقد أن إعلان من أخذ شيئاً في وسائل إعلامه كاف لتحقيق مراد من أعطى، وبشكل كريم لائق بعيد عن المن، إذ هو في هذه الحالة يكون اعترافاً وشكراً لمن أعطى. كما أنه لا يتناقض مع توجيهات الإسلام كحالة المن تلك.

٣) إلغاء شرط الكفيل :

يلاحظ أن دول الخليج هي أكثر الدول حديثاً عن التزامها شرائع الإسلام وتوجيهاته، وهي في نفس الوقت أكثر دول العالم فرضاً للقيود على العرب والمسلمين المقيمين فيها. ولعل أشد هذه القيود على نفسية المقيم وأعصابها على التبرير شرط الكفيل. خاصة وأن بعض المواطنين الخليجيين قد ابتكروا أساليب لتحويل نظام الكفالة إلى إذلال وامتهان لكرامة العربي والمسلم المقيم، وإلى وسائل استغلال بشعة ولا إنسانية (تحت سمع وبصر المسئولين) لكل من المقيم أو من يود القدوم للعمل. وفي هذا الموضوع نسمع الكثير من القصص اللاإنسانية، التي لا يرضى عنها شرع ديني أو وضعي، لا تنشر حتى لا يضار أصحابها أكثر وأكثر ولكنها تروى من أصحابها شفاهة ويتناقلها الناس.

المعروف أن الإسلام رحم بين أهله، وكذا العروبة، بمعنى أن الإسلام يربط بين المسلمين بعضهم البعض برباط الأخوة ويتخطى الحدود. فكيف يوفق الخليجيون بين حمايتهم وحديثهم عن توجهاتهم الإسلامية واستبقائهم نظام الكفالة؟

قد يقول قائل إن نظام الكفالة يؤمن حق الدولة الخليجية قبل المقيم. وليس هذا بقول مقنع، فكل الدول تؤمن حقها قبل الأغراب المقيمين فيها دون لجوئها لنظام الكفيل.. إننا ننصح دول الخليج بإلغاء نظام الكفيل، والبحث عن وسائل

إنسانية لائقة تحفظ لها حقها بعيداً عن هذا النظام الذى تفنن بعض الخليجيين فى تحويله إلى استغلال بشع، يعمل على إشاعة الاتجاهات السلبية نحو دول الخليج التى تستخدمه. من قبيل ذلك متاجرة بعض الخليجيين بمنح كفالاتهم نظير ألوف تدفع لهم من قبل محتاجين للعمل ثم يحضرون دولة الخليج على حسابهم ولا يجدون عملا فيعودون إلى أوطانهم مزدادين فقراً على فقر، وحاجة على حاجة فيشيعون بين مواطنيهم ما يشيعونه من اتجاهات سلبية نحو الخليج.

٤) إلغاء التمييز في الالتحاق الجامعي بين المواطن الخليجي والمقيم العربي :

تقيم للعمل بالخليج أعداد كبيرة من مواطني البلاد العربية والإسلامية، كان أبناؤهم يتلقون التعليم الجامعي وما دونه مع أبناء الخليج جنباً إلى جنب حتى عهد قريب. وربما من مدة تقل عن عشرة سنوات بدأت دول الخليج في عدم قبول أبناء المقيمين في جامعاتها، مما اضطر بعض الأسر المقيمة إلى إرسال أبنائها للتعليم الجامعي ببلادها الأصلية مع استمرار إقامتها في الخليج، أو إلى ترك مصدر الرزق والعمل في الخليج والعودة إلى بلادها لتكون إلى جوار أبنائها في مقار تعليمهم. وكلا الأمرين غير مريح لمثل هذه الأسر.

والمبرر الذى يرد على الذهن وراء إقدام دول الخليج على مثل هذه التفرقة بين الخليجي الذى يفتح الخليج له جامعاته والمقيم الذى يغلقها الخليج في وجهه، هو التكلفة العالية للتعليم الجامعي وضن الخليج بها على العربي والمسلم غير الخليجي. لكن دول الخليج الغنية، التى تعيش الوفرة، هل تنوء عبءً بهذه التكلفة؟ وهل يمكن لذوي الاتجاهات الإيجابية نحو الخليج في مقابل العراق أن يدافع باقتناع عن رفع الخليج شعار الإسلام والعروبة إذا ما هوجم من هذه الزاوية. خاصة وأن أمامهم النموذج المصري الذى كان يقبل كل أبناء العروبة في جامعاته بكل أقسامها، سواء المقيمين منهم أم الذين يأتون خصيصاً للتعليم، ولم يكن يفرض

عليهم لقاء تعليمهم إلا أخيراً عندما واجه أزماته الاقتصادية، وتضخمت ديونه الخارجية. بل إنه كان يعين مالياً برواتب شهرية لأبناء العرب والمسلمين الدارسين بجامعاته.

٥) إلغاء التمييز بين الأجانب وبين العرب والمسلمين في عقود العمل :

لاشك أن التمييز بين أجور من يؤدون عملا واحداً، وبنفس الكفاءة شيئاً غير مريح نفسياً، ويعمل على تكوين اتجاهات سالبة نحو صاحب العمل، خاصة وإن كان هذا التمييز قائماً على أساس من الجنس أو الموطن. وقد حث الإسلام على عدم التمييز هذا، فرفع شعار «لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى». فالتمييز هنا يناقض مبدأ العدالة. ومن الصعب تبريره أو الدفاع عنه.

وتلجأ معظم الدول الخليجية إلى هذه التفرقة في المعاملة ليس فقط في الأجور، بل في بقية الامتيازات الأخرى المصاحبة كالسكن وتذاكر السفر.. إلخ (وما سبق لنا أن كتبناه في البند السابع من الجزء الأول من نتائج دراستنا هذه يمكن إعادته هنا، لذا نحيل القارئ إليه).

فإذا أضفنا إلى هذا ما كتبناه في البنود الثلاثة السابقة مباشرة (المن بالمسادعات، ونظام الكفيل، وعدم قبول المقيمين بالجامعات) أدركنا نماذج للثغرات الواسعة التى يمكن أن يدخل منها ذوو النوايا السيئة نحو الخليج لتشويه الصورة الذهنية عنه في نظر الجماهير العربية والإسلامية، وكان لنا بالتالي – إن كنا مخلصين في عمل ما يحسن صورة الخليج – أن ننصح صراحة بسد هذه الذرائع، وإصلاح هذه الحالات بجدية وسرعة.

٦) ضرورة احترام المسئول الخليجي لعقلية المواطن العربى والمسلم في خطابه الإعلامي :

كثيراً ما لا يقيم الخطاب الإعلامي الخليجي وزناً لعقلية مواطن العالم العربي والإسلامي، ويستهتر بها وكأنه يخاطب طفلا صغيراً غريراً يحاول إقناعه أو إيهامه بغير الواقع. فإبان أزمة الاحتلال العراقي للكويت، كثيراً ما كان يطالعنا مسئول كبير من هذه الدولة الخليجية أو تلك، والتى تكون التفرقة فيها من أوضح ما يكون بين المواطن والمقيم، فيشير بشكل صريح ومباشر إلى أن دولته لا تفرق أبداً بين المقيم (العربي المسلم) وبين أخيه المواطن؛ فكلاهما يتقاضى نفس المرتب وله نفس الامتيازات الوظيفية.. ويعاملون على قدم المساواة في كل شئ.

ويعلم هذا المسئول الكبر أن كل ما قاله، أو على الأقل معظمه، إنما كان مخالفاً للحقيقة. بل ربما لم يكن مطلوباً منه أن يقوله. فليس متوقعاً بطبيعة الحال – أن يعامل المقيم معاملة المواطن في وظيفته من حيث المساواة فى المرتب والامتيازات الوظيفية، باعتبار أن المواطن له حق طبيعي في ثروة بلده لا ينبغي أن يزاحمه فيها المقيم قياساً على ما يقرره الشرع من وراثة الأبناء لما في حوزة الأسرة دون أن يشاركهم في هذا الأغراب الذين توظفهم الأسرة أو يقدمون لها خدمات.

ولقد ضربنا هذا مثلا، باعتباره واضح الدلالة على مغالطة الخطاب الإعلامي الخليجي أحياناً في أمور لا تحتمل هذا، ومن السهل كشفها، عند ذاك يرد على الذهن سؤال : إذا كان هذا كذلك فما بالنا بالأمور التى يصعب كشفها ويسهل تزييفها ؟؟!!

وغالباً ما يؤثر مثل هذا الخطاب الإعلامي سلبياً من زوايا أربعة أساسية :

أ) **إحداهما** : هي استفزاز العقل المتلقي لهذا الخطاب، حيث يوحي بالإستهتار به، وبعدم احترامه، وبمعاملته كما يعامل الكبير طفلا صغيراً يريد أن

«يضحك عليه» قناعة منه بسذاجته وسرعة تصديقه (ولاشك أن هذا يستثير الاستياء والاحتجاج لدى المتلقي).

ب) أما الثانية : فهي أن يفقد المتلقي الثقة في صدق الخطاب الإعلامي الخليجي، ويستتبع ذلك أن يقوم بعملية تعميم Generalization ذلك على كل ما يقول به المسئولون الخليجيون بما فيه حقهم وعدالة قضيتهم.

جـ) يزيد هذا في تشويه الصورة الذهنية عن شخصية الخليجي بدمغها بالنفاق الاجتماعي البغيض.

د) تلقف الدعايات المضادة، لمثل هذه التصريحات كمادة تدل على لجوء الدول الخليجية للتضليل فى كل ما تقول به.

ومن هنا، فإننا نوصي المسئول الخليجي أن يتحرى الصدق والدقة والواقع، في كل ما يدلي به أو يتحدث فيه؛ فكما يقال : «الحق يعلو ولا يعلو عليه».

٧) سرعة تنفيذ خطوات التكامل الاقتصادي العربي :

يعلم الاقتصاديون أن إمكانيات التكامل الاقتصادي العربي متوافرة إلى أبعد الحدود. وأن تنفيذه بكل سرعة وجدية سوف يفيد جميع البلاد والشعوب العربية – دون استثناء – فائدة اجتماعية واقتصادية محققة. كما يعلم المفكرون والاجتماعيون أن الرخاء الاقتصادي (والذى نتوقعه من تنفيذ التكامل) إنما يقلل من التوترات السياسية والاجتماعية، كما يؤدي بالشخصية إلى الطمأنينة والهدوء ولا يجعلها سهلة الاستثارة متحفزة للهياج والتدمير مستهدفة للدعايات المضادة والمضللة. وعلى الرغم من أن التكامل قضية اقتصادية صرفة، إلا أن الرخاء الذى يجلبه سيكون شديد التأثير في نفوس الجماهير العربية. بل إنه سيكون سداً منيعاً ضد تكرار ما حدث من مأساة الاجتياح العسكري العراقي للكويت، ويحول دون

تكرار هذا من العراق أو غيره من البـلاد العربية ضد الكويت أو غيرها. ولابد أن نعترف أنه في ظروف العرب الحالية، فإن إمكانية تكرار نفس المأساة أو ما يشبهها قائمة، بل هي مرجحة تماماً.

ويأمل المفكرون العرب في نوع من الوحدة العربية والتكامل الاقتصادي تقضي على الصراعات الجانبية العربية–العربية، كما تؤدي إلى رفاهية اقتصادية للعرب جميعاً، وإلى قوة للعرب تقف حائلا دون أن ينال منهم عدوهم، أو يعبث بهم سفهاؤهم.

ولاشك أن الإسراع بالتكامل الاقتصادي العربي الحقيقي، يتوقف أساساً على مدى حماس الدول العربية الغنية، ومدى استعدادها للبدء بالعطاء. إلا أن عائده عليها لاشك أفضل كثيراً من تقاعسها عنه. ولنا أن نتصور ما كان يمكن أن يكون عليه العالم العربي اليوم فيما لو أنفقت دول الخليج المائة مليار وخمسين دولاراً التى قدر البعض أن الخليج أنفقها فى حرب الكويت على مشاريع التكامل الاقتصادي العربي (مع ملاحظة أن تكرار نفس المأساة أمر محتمل كما أشرنا)، هذا فضلا عن اتقاء نتائج هذه المأساة من خسائر بشرية ومعنوية جسيمة حقاً.

لقد دفعت الحرب العالمية الثانية أوروبا إلى شئ من الوحدة السياسية والاقتصادية تقوم الآن وتقوى يوماً بعد يوم، ألا نستفيد من عبر التاريخ فنأمل شكلا من الوحدة الاقتصادية والسياسية تقوم بين الشعوب العربية كنتيجة لحرب الكويت، التى أقامت الدليل على مدى حاجتنا كعرب إلى الوحدة والتكامل.

٨) توصية الخليجي بضرورة الالتزام بالسلوك الاجتماعي القويم :

إن المواطن سفير بلده وعنوانه في أي مكان، سواء في داخل بلده أم خارجه. فإن كان سلوكه قويماً حسناً طيباً داخل بلده، أعطى إنطباعاً طيباً عن بلده كلها

أمام السائح فيها أو الغريب أو المقيم. وإن كان كذلك خارج بلده أعطى نفس الانطباع الطيب عن بلده عند مواطني البلدان الأخرى التى يتواجد فيها. ومن هذه الملاحظات وتلك لسلوك مواطني بلد معين تتكون في الذهن عن هذا البلد صورة عن شخصيته يسميها علماء النفس الاجتماعي بالطابع القومي National Character، باعتبار البلد (أو المجتمع المعين) كشخصية الإنسان الفرد تتميز بالكرم أو بالبخل، بالجرأة أو بالخجل، بالمسالمة أو بالعدوان، بإنفتاح العقل أو بإنغلاقه، بالأنانية أو بالغيرية، بمنهجية الفكر العلمي الموضوعي أم الخرافي السحري، بالأخلاق الكريمة أم بالأخلاق الذميمة، بالنشاط أم بالكسل.... إلخ.

ولاشك أن ديننا الإسلامي قد حض على الخلق القويم الكريم، بل إنه أمر به، وقرنه بالعمل الصالح الذى ينفع الفرد والآخرين. وطالب كل مسلم بأن يكون سلوكه حسناً طيباً خيراً بعيداً عن الرذيلة والفساد. قال الله تعالى : ﴿... **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب**﴾ (سورة المائدة، آية رقم ٢). ومثل هذه الآيات الكريمة التى تحض على فعل الخير والتزام السلوك الحسن القويم كثير في القرآن الكريم. كما أن السنة وأحاديث الرسول في هذا الشأن كثيرة يصعب حصرها. ولقد كان هذا أحد المنطلقات التى أدين منها العدوان العراقي على الكوت، واستقطب كثيراً من العرب والمسلمين ضده.

لقد كان المسلمون الأوائل – ولازال المسلمون الحقيقيون المخلصون – يحببون الناس في الإسلام بسلوكهم القويم باعتبار أن هذا هو سلوك المسلم الحقيقي، وأن الإسلام إنما يحض على كريم الفعال والخصال. وهكذا تحول كثير من الناس إلى الإسلام واعتنقوه.

وللحق فإن السلوك الاجتماعى القويم شئ تحض عليه كل الشرائع الدينية والوضعية، بل تحض عليه الفطرة السليمة. فبه تزدهر المجتمعات، ويعمر الكون.

ومن أسف أن سلوك بعض مواطني الخليج، خاصة خارج بلادهم لا يراعي أصول السلوك الاجتماعي القويم. ويبدو منحرفاً بشدة عنه، بما يناقض صورة المسلم الحق، بل صورة الإنسان السوي أياً كان دينه. فقد ترى هذا يسرف ببذخ يقترب به من صورة السفيه، وهذا يتخطى في سلوكه حدود المواضعات الاجتماعية المحيطة بما يقترب به من المجون.

ولاشك أن مثل هذه التصرفات تفجأ الملاحظ لها أو القارئ عنها. كما أنها مادة ثمينة لمن يريد تشويه صورة الخليجي في ذهن الشارع العربي أو الإسلامي أو الأجنبي، وهم لاشك كثيرون. (راجع ما كتبناه في البند السادس من الجزء الأول من نتائج هذه الدرساة لارتباطه بهذه النقطة). بل إن مثل هذه التصرفات يحلو لأعداء الأمة العربية والإسلامية أن يضخموها ويروجوا الحديث عنها باعتبارها نماذج شائعة لسلوك العربى والمسلم، تميز أبرز خصائصه وسماته الشخصية.

٩) ترشيد «البطر السيكولوجي» :

لعلها فرصة الآن لنطرح مصطلحاً جديداً في علم النفس هو «البطر السيكولوجي Psychological Arrogance». وكلمة «بطر» معروفة فى العربية، بل إنها أكثر شيوعاً واستخداماً في العامية. ونقصد بها – كمصطلح نطرحه هنا – تلك الحالة التى يسلك فيها صاحبها سلوكاً يشير إلى مزيج من الغطرسة والتعالي والتمرد، دون مراعاة لحرمة النعمة التى أنعم الله بها عليه، ولا تقدير لها، ولا محاولة لصيانتها.

ولقد أشار القرآن الكريم ذاماً للبطر، ومحذراً منه لسوء عاقبته. فقد قال الله عز وجل في سورة الأنفال : الآية رقم ٤٧ **﴿ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط﴾**. كما قال في

سورة القصص : الآية رقم ٥٨ ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلا وكنا نحن الوارثين﴾.

وهكذا يبدو البطر ظاهرة غاية في السوء والسلبية، ووصمة تحط من قدر الشخصية، وتمثل خطورة شديدة عليها. وتتعلق في نفس الوقت بموضوع حديثنا في البند السابق عن ضرورة الالتزام بالسلوك الاجتماعي القويم. ولقد أفردنا لها هذا البند الخاص للتأكيد على أهميتها وشدة خطورتها. وهي ظاهرة - شأن أي ظاهرة نفسية اجتماعية - توجد في كل مجتمعات العالم، لكنها - للأسف الشديد - أوضح في بعض دول الخليج. فكثيراً ما تجد هذا يقود سيارته الفخمة الثمينة بسرعة جنونية في شوارع المدينة بحيث تحدث هلعاً للمارة والسائقين على السواء، وقد يودي هذا بحياة البعض أو يؤذيه. كما أنك قد تجد هذه المجموعة (خاصة من الشباب) يتسابقون في حركاتهم «البهلوانية» بسياراتهم، لا يهمهم ما يصيب سياراتهم من ضرر بسبب هذا، أو ما قد يصيبهم أنفسهم، مما يجسد بحق ظاهرة «البطر السيكولوجي» التي نطرحها الآن.

ولعل من أخطر مظاهر «البطر السيكولوجي» أيضاً أنه يؤدى بصاحبه إلى الاستهتار بالنعمة والاطمئنان إلى بقائها مما يدفعه إلى التكاسل في سعيه للعمل، أو كده للتحصيل، مع الإنفاق بتبذير شديد، بما يتنافى جميعه مع السلوك الاجتماعي البناء والقويم.

ونوصي لترشيد هذا البطر السيكولوجي، وأيضاً نواحي الإعوجاج فى السلوك الاجتماعي (الذى تحدثنا عنه في البند السابق مباشرة) بأمثلة مما يلى :

١ - الإهتمام في تعليم الأطفال والشباب (في المدارس والمعاهد بمختلف مستوياتها) قيمة العلم والعمل وأسبقيتهما على ما عداهما في تقدير قيمة الإنسان في المجتمع وضرورتهما لإزدهار المجتمع ورقيه.

٢ – إبراز مظاهر البطر وأشكاله، ومظاهر السلوك الاجتماعي السيئ، وعواقبهما على كل من الفرد والمجتمع أثناء تعليمنا للأطفال والشباب في المدارس والمعاهد التعليمية.

٣ – المصارحة الإعلامية بما يشيع في المجتمع الخليجي من هذه السلبيات وضرورة مقاومتها في كل وسائل الإعلام المتاحة.

٤ – أن يعطى الكبار (كالآباء والمعلمين وكبار القوم) مثلا طيباً في السلوك القويم، كقدوة عملية فعلية لأبنائهم وشبابهم، دون الاكتفاء بالوعظ اللفظي الذى يناقضه السلوك الفعلي.

٥ – التزام الجدية والعدالة في تطبيق القانون، والعقاب الفوري بأشكاله المختلفة لمن ينحرف في سلوكه عن جادة الصواب.

١٠) تحقيق قدر أكبر من الديمقراطية في دول الخليج :

تستخدم قضية الديمقراطية هذه الأيام بشكل حاد في توجيه الدعايات المضادة بين الدول بعضها البعض، وفى تفاخر كل دولة بنفسها. فكل دولة من دول العالم تدعي أنها قمة الديمقراطية، وأن نظامها في الحكم أفضل أنظمة الديمقراطية على الإطلاق. بينما النظام في الدولة المعادية لها هو أسوأ أنظمة الديكتاتورية فى العالم. حتى أننا نجد الدول التى تجمع دول العالم على ديكتاتوريتها تصف نفسها بأنها المدافعة عن الديمقراطية في العالم، بل قد تضيف إلى إسمها الرسمي الذى تعرف به لفظ «الديمقراطية». وهذا يضع الجميع في حيرة من حيث تعريف الديمقراطية ومظاهرها، وهل هي شكل يمكن أن يفرغ من محتواه بسهولة ؟، أم أن شكلها – بما هي كذلك – يحفظ جوهرها ويحافظ عليه؟، أم هي مضمون بعض النظر عن الشكل؟.. فكم من دولة لها برلماناتها ومجالسها الشعبية، ومع ذلك فإنها في الواقع في قمة الديكتاتورية لأن أنظمة الحكم فيها قد

أقامت البرلمانات والمجالس الشعبية كواجهة فقط، والتفت حولها فأفرغتها من مضمونها، بل إن مثل هذه البرلمانات والمجالس الشعبية تعتبر في الحقيقة كارثة على هذه المجتمعات لأن أنظمتها تمرر فيها ما تريد القيام به، ثم بعد ذلك تدعي أن هذه إرادة الأمة، وإرادة الشعب الذى لا تستطيع الحكومة أن تعصيه. ولنا في قرارات النظام العراقي في عدم انسحابه من الكويت وفي رفضه لمساعي السلام ودخوله حرب الكويت دليل واضح على ذلك، إذ أنها جميعاً صدرت بموافقة المجالس الشعبية والنيابية في العراق. وهكذا فإنه من الناحية الشكلية يهرب المسئولون الحقيقيون عن هذه الكارثة من تحمل مسئوليتها، بحجة أنهم لم يكونوا أكثر من موظفين ينفذون إرادة ممثلي الشعب الذى استأمنهم على تنفيذ إرادته.

وفي ضوء هذا فإننا نوصي دول الخليج بالبحث عن صيغ تتفق وظروفها، تحقق قدراً أكبر من الديمقراطية في مواجهة العالم الخارجى والأعداء الذين يركزون بصفة خاصة على نقص الديمقراطية فيها. خاصة وأن الديمقراطية أصبحت في الأيام الأخيرة أهم قضية تشغل دول العالم كافة، وبخاصة الدول الكبرى التى تقود هذا العصر وتوجه سياسته. وبهذا يمكن لدول الخليج أن تسد ثغرة هامة ينتهزها خصومها لتشويه صورتها في أذهان الآخرين.

وإلى هنا نكتفي بذكر هذه التوصيات التى نرى أن نجاح دول الخليج في تطبيقها يؤثر تأثيراً كبيراً في تحسين صورة دول التعاون الخليجي في أذهان العالم العربي، والعالم الإسلامي، بل العالم بأجمعه. كما أنه يؤدي إلى إضعاف الاتجاهات السلبية نحو دول الخليج ويصححها إلى اتجاهات إيجابية مؤيدة. ننصح بهذا – خاصة – من منطلق الرغبة المخلصة في تقوية الروابط النفسية الاجتماعية الإيجابية بين مواطني مختلف الدول العربية، كقاعدة صلبة لابد منها لتحقيق وحدة عربية مأمولة.

ملاحظة في خاتمة :

حاولنا في هذه الدراسة أن نقترب من الموضوعية قدر الإمكان، وأن نتبنى ونعرض خواطر علم النفس ومنظوره بشكل صريح دون مواربة، وبغض النظر عن اتفاقها أو اختلافها مع خواطرنا أو اتجاهاتنا أو توجهاتنا الشخصية أو الذاتية. ذلك أن خواطر الباحث الذاتية وتوجهاته الشخصية إن تدخلت في العلم أفسدته وذهبت بالجزء الأكبر من فائدته. ولذا فقد قلنا هنا كثيراً مما كنا نود ألا نقوله، بل كثيراً مما كرهنا أن نقوله، لولا أن أمانة الكلمة، وموضوعية الباحث، وخطورة الموضوع كلها قد ألزمتنا ذلك، وفرضته طوعاً أو كرهاً. والله الموفق أولاً وأخيراً.

المراجع

١ – تركي الحمد : عجيب أمر هذه الأمة، مقال بجريدة الشرق الأوسط، عدد : ١٩٩٢/٤/١٢.

٢ – حلمي محمد القاعود : هتلر الشرق، القاهرة، دار الاعتصام، ١٩٩٠.

٣ – رياض نجيب الريس : (إشراف)، عودة الاستعمار، لندن–قبرص، رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩١ (مجموعة مقالات لكتاب مختلفين).

٤ – صدام حسين : خطاب في وفد الأمانة العامة للاتحاد الدولي لنقالت العمال المشاركة في المؤتمر العام التاسع للاتحاد العام لنقابات العمال في العراق، ١٩٩٠.

٥ – عصام دراز : لماذا اختلفنا ؟ الإسلاميون وحرب الخليج، القاهرة، المنار الجديد، ١٩٩١.

٦ – فرج عبدالقادر طه : أضواء على سيكولوجية الشخصية العربية، في كتابه : علم النفس وقضايا العصر، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨٦. (وأعيد نشره في هذا الكتاب).

٧ – فرج عبدالقادر طه : هل حقاً الإنسان يبحث عن السلام – نظرة نفسية، ترجمة بحثه الذى ألقاه فى المؤتمر الدولي الثامن لعلم النفس عبر الحضاري باستانبول – تركيا، والذى نشر بمجلة علم النفس، القاهرة، عدد : ٢، ١٩٨٧. (وأعيد نشره في هذا الكتاب).

٨ – محمد سليمان بن عبدالله الأشقر : زبدة التفسير من فتح القدير، دولة الكويت، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، شركة ذات السلاسل، ١٩٨٨.